معهد الإنماء العربي

تجديد النحو العربي

د. عفيف دمشقية

الدراسات الانسانية

١

تحديث اللغة العربيّة

تجديد النحو العربي

د. عفيف دمشقية

معهد الانماء العربي

فرع لبنان



معهد الانماء العربي

المركز الرئيسي : ص.ب : ٨٠٠٤ طرابلس - ج.ع.ل.

فرع لبنان : ص.ب : ١٩/٥٣٠٠ بيروت

طبعة جديدة ١٩٨١

مقدّمة

كثيرون هم الذين بحثوا في نشأة النحو العربي مستندين الى ما تيسر لهم من الوثائق والروايات ، فافترضوا الفروض ، وابدوا وأعادوا ، وخرجوا من بحثهم بطائفة من الآراء جنح بعضها الى مسايرة السلف الصالح ومماشاتهم في ما أتوا به ، دون ان يكلف اصحابها انفسهم احيانا عناء التمحيص ، وغالى بعضها الآخر في الرفض والانكار ، دون ان يعترف اصحابها للسابقين بأي فضل سوى فضل الاقتباس والنقل ! وكان من حصيلة ذلك كله ان وجد الباحث المتطلع نفسه يخرج من متاهات الاقدمين ليدخل حلقة جديدة من متاهات المحدثين .

فأما « متاهات » القدماء فتتمثل — على ما نظن — في انهم حين نهدوا لتأريخ « النحو » ، لم يراعوا جانبه الوظيفي البحت ، باعتباره علما يهدف قبل كل شيء الى تنظيم الكلام ، بل خلطوا به كل ما له علاقة باللغة من صرف ، وفقه ، وفوارق لهجية ، ومادة معجمية، حتى غدا كل عامل في حقل اللغة المترامي الاطراف « نحويا » . . .

واما « متاهات » المحدثين فيتجلى اكثرها في البحث عن « اصل » النحو العربي . فمن قائل بأنه اقتباس من الهنود ، وزاعم

بأنه نسج على منوال السريان واليهود ، ومدّع بأنه محاكاة للاغريق، القصد منه رفع العربية الى مصاف لغة أرقى منها ، الى ما هنالك من مزاعم لا يملك معها المرء ان يتساءل عن الهدف من ورائها ، او الدافع اليها ، او النفع الذي تعود به على البحث العلمي ...

ثم ان اكثر الباحثين في نشأة النحو العربي خاصة ، لم يزيدوا على ان اقتفوا خطى السلف ، فجاءت ابحاثهم ــ على حداثتها ــ صورا طبق الاصل عما في كتب التراجم ، الا في القليل القليل ، حيث حاول الباحث التصدي لمفاهيم مغلوطة من مثل مفهوم « السليقة العربية » ، ومفهوم « اللحن » ، وغير ذلك .

ولسنا ندعي ، في أي حال ، ان حظنا سيكون اوفر او احسن من حظوظ غيرنا من الدارسين، ولا سيما فيما يتعلق بنشأة النحو العربي وما يلفها من غموض ، ولكن بدا لنا أنه لا مناص من الادلاء بدلونا بين الدلاء ، عسى ان نخرج فيها بجديد ، يحدونا الى ذلك غيرة على لغتنا الأم يشعر بها ولا ريب ، كل عربي مخلص لامته ، وحرص على بقائها متلألئة بين مثيلاتها من اللغات الحية .

واننا لعلى يقين من ان اول خطوة في السبيل الذي رسمناه هي ان نحاول تيسير النحو لطلاب العربية والناطقين بها . ولا نعتقد ان ذلك يمكن ان يتم الا بتخليص لغتنا مما رافق تاريخها من «محنّطات»، وما كبلوها به من ارهاق واعنات خلال مسيرتها الطويلة .

وكل ما نصبو اليه ، ان نوفق الى نفض ما تراكم من غبار على تاريخ النحو العربي ، وان يكون عملنا المتواضع هذا فاتحة خير امام الباحثين الناشئين ، ومنطلقا لهم الى اشواط ابعد وأوسع واكثر سدادا ان شاء الله .

بيروت في ٣٠/١٢/٧٦

الدكتور عفيف دمشقية

الفصل الاول

اصل النحو العربي

لا مراء في ان اللغة ـ كل لغة ـ سابقة في نشأتها بما لا يمكن تحديده من الزمن على كل العلوم المتصلة بها من نحو وصرف وصوتيات ومعجمات وغير ذلك. ولا مراء كذلك في ان العرب ـ ككل شعوب الارض ـ عاشوا أزمنة طويلة يمارسون لغتهم في مخاطباتهم ومعاملاتهم ، وفي نظم الشعر ، وتدبيج الخطب ، بشكل عفوي ، ودون ان يكونوا على معرفة بأي من خصائصها ودقائقها التي قام علماء العربية في العصور المتأخرة باستخراجها وتقنينها .

وليس من شأن الدراسة التي نحن بصددها البحث في نشأة اللغة العربية وتطورها على السنة المتكلمين بها حتى ظهور الطبقة الاولى من اللغويين والنحاة . وكل ما يمكن قوله بهذا الصدد هو ان « اللغة » ظاهرة اجتماعية ، وانها ، ككل الظواهر الاجتماعية ، عرضة للتغير والتبدل في أي عصر من عصورها . ولا بد ان تخضع في وقت من الاوقات لمجموعة من القوانين ، تضبطها ، وتنظمها ، وتبعد عنها شبح الفوضى خلال تطورها المحتوم . وهذا ما ادركه علماء اللغة في كل امة ، فشمروا عن سواعد الجد لاستقراء لغتهم واستخراج القواعد والمقاييس التي يتمكن بها ممارس هذه اللغة او تلك من ان يأمن الزلل ويميز بين الخطأ والصواب .

ولعله من العسير جدا على الباحث ان يحدد الزمن الذي بدأت فيه الشعوب تحس بالحاجة الى ضبط قواعد لغاتها ، لأن تطور اللغة لا يمكن حصره في زمن معين ، ولأنه يكاد يكون مستحيلا معرفة

العوامل التي تؤثر في احداث ذلك التطور ، قبل حدوثها على صعيد الواقع . فاحتكاك لغة باخرى نتيجة تجاور أمتين ، او بفعل تعاملهما تجاريا ، او بسبب تسلط احداهما على الثانية ، كفيل باحداث التطور والتبدل في اللغتين ، سواء في ذلك ، الناحية الصوتية (طريقة التلفظ ببعض الحروف) ، او تداخل المفردات (اقتراض احدى اللغتين مفردات من اللغة الاخرى لا توجد فيها اصلا ، او تحل محل مفرداتها الاصيلة لأنها اخف منها على الألسنة ، او تتعاقب مع هذه المفردات على لسان المتكلم) ، او غير ذلك من النواحي ، كنظام تركيب الكلام ، وطرق التعبير ، وأساليب الانشاء .

كذلك فان للعوامل القومية والدينية آثارا واضحة في ظاهرة التطور اللغوي ودفعها في اتجاه معين احيانا ، أو الوقوف في وجهها سدا منيعا او شبه منيع احيانا اخرى ، كما كانت الحال بالنسبة الى العرب الذين كان لهم في لغتهم قبل الاسلام مصدر اعتزاز قومي تجلى في المباريات الكلامية التي كانت تقوم في اسواقهم ، ثم جاء الاسلام ونزل القرآن الكريم ــ رسالة السماء الى العالم اجمع ــ بلسان « عربي مبين » ، فزادهم رسوخا في الاعتقاد بعظمة تلك اللغة . فمما لا شك فيه ان ايمان العرب بقدسية الفاظ كتابهم قد ساعد كثيرا على حفظ معظم مقومات لغتهم الادبية المشتركة وخصائصها ، وحال دون تفتتها الى لغات محلية ، كما حدث مثلا بالنسبة الى اللاتينية التي تفرعت الى لغات متباينة ، منها الايطالية والاسبانية والفرنسية (١) .

وهناك ــ كما يقول بروكلمان (٢) ــ ملاحظة عامة هي ان «اصل علم اللغات عند جميع الامم هو قيام تضاد بين لغتين او مرتبتين من لغة واحدة ، مثل لهجة العامة ولهجة الاوائل في كتب الدين ، مما يبعث الداعي الى البحوث والانظار اللغوية » . ولعل هذه الظاهرة قد واجهت العرب لدى خروجهم من مواطنهم الاولى لنشر راية

---

(١) محمد المبارك ، فقه اللغة وخصائص العربية ، ص ٣٣ .
(٢) تاريخ الادب العربي ، ج ٢ ص ١٢٤ .

الاسلام ، واتصالهم بغيرهم من الامم ، فكان لهذا الاتصال اثره المحتوم في مظاهر حياتهم ، ومنها اللغة التي كان طبيعيا « ان تتعرض للتأثر فتتسرب اليها كلمات اجنبية ، او تتغير ابنية بعض الالفاظ ، او يختل ضبط حروفها ، او تركيب جملها واساليبها » (١) .

ولعل ممارسة « الانظار اللغوية » قد بدات مبكرة في صـــدر الاسلام ، اذا نحن اعتبرنا ما تسوقه كتب التراجم واللغة من روايات عن ظهور اللحن والخطأ منذ ايام النبي عليه الصـــلاة والسلام ، والخلفاء الراشدين ، من مثل ما يروى من قول النبي ، وقد سمع احدهم يلحن في القراءة : « ارشدوا اخاكم فقد ضل ». لكن الدارس لا يجد ان يجزم بشيء في امر قيام تلك « الانظار » لانعدام الوثائق والمستندات بين يديه . وكل ما يملك ان يجزم به ، هو ان احتكاك العربية بغيرها من اللغات بعد الفتوحات ، ورقـــي الفكـــر العربي بمفروزات التحضر والاستقرار ، ودأب العرب على صون لغتهم التي بها يعتزون نقية من شوائب اللحن ، وحرصهم علـــى تعليمها لابناء الشعوب التي اعتنقت الاسلام باعتبارها لغة الدين الجديد ووعاء الوحي الكريم ، كل ذلك دفع نفرا من المفكرين العرب لاستقراء مـــا توارثوه من أدب ، وما جاء به كتابهم القويم من آيات بينات ، ثـــم امعان النظر في ظواهر لغتهم المختلفة ، فتحصل من ذلك الاستقراء وهذا النظر محاولات لـ « رسم العربية » ، اخذت تنمو وتتضاعف مع الايام ، فكان لنا منها هذا العلم المتكامل الذي اطلق عليه فيما بعد اسم « النحو » .

واذا كان تحديد الزمن الذي نشأ فيه علم النحو ــ باعتبار جذوره الاولى ــ من الصعوبة بمكان ، فان البحث في اصل نشأته لا يقل صعوبة وعسرا . فالآراء حول « اصل » النحو العربي ، من التشعب والتضارب ، بحيث يخرج منها الدارس بقناعة واحدة هي انه لا سبيل الى الركون لرأي واحد من تلك الآراء باعتباره الرأي

---

(١) عباس حسن ، اللغة والنحو بين القديم والحديث ، ص ١٨ .

الحاسم القاطع . ولسنا ندعي ان حظنا في البحث سيكون اوفر من حظوظ من سبقونا اليه . فكل ما سنحاوله في الصفحات القادمة هو ان نستعرض باختصار اهم الآراء عن أصل النحو العربي ، رجاء ان يكون فيها ما يهدينا لدى النظر في الاسباب التي دعت الى استحداث ذلك العلم ، ورسم اصوله وقواعده .

اولا : المذهب التوقيفي

يتمثل هذا المذهب في ان اللغة ـ بكل ما يتصل بها ـ « وحي وتوقيف » من الله تعالى ، استنادا الى قوله عز وجل في الآية الكريمة : « وعلم آدم الاسماء كلها » (البقرة / ٣١) . وصاحب هذا المذهب هو احمد بن فارس مؤلف « معجم مقاييس اللغة » وكتاب « الصاحبي في فقه اللغة » . فهو ، بعد ان يقرر بأن « الخط » توقيف ، استنادا الى ما جاء في سورة العلق « اقرأ باسم ربك الذي خلق ● خلق الانسان من علق ● اقرأ وربك الاكرم ● الذي علم بالقلم ● علم الانسان ما لم يعلم ● (الآيات الخمس الاولى) ، والى الآية الكريمة « ن ● والقلم وما يسطرون » (نون / ١) ، وبعد ان يستعرض ما روي من ان العرب لم تعرف نحوا ولا اعرابا ولا رفعا ولا نصبا ولا همزا ، يقول بأن مذهبه بخلاف ذلك ، وان المرجع في كل هذه الامور هو « التوقيف » . ثم انه يؤيد رأيه بقوله (١) : « والدليل على صحة هذا ، وان القوم تداولوا الاعراب ، انا نستقريء قصيدة الحطيئة التي اولها : شاقتك اظعان لليلى دون ناظرة بواكر ، فنجد قوافيها كلها عند الترنم والاعراب تجيء مرفوعة. ولولا علم الحطيئة بذلك لاشبه ان يختلف اعرابها ، لان تساويها في حركة واحدة اتفاقا من غير قصد لا يكاد يكون . »

ثم ان ابن فارس يرد على القائل بأن الروايات تواترت بأن ابا الاسود الدؤلي اول من وضع « العربية » ، وان الخليل اول من

(١) الصاحبي ، ص ٢٧ـ٢٨ .

تكلم في العروض ، بأنه لا ينكر ذلك ، ولكنه يقرر « ان هذين العلمين قد كانا قديما ، واتت عليهما الايام وقلاّ بين ايدي الناس ، ثم جددهما هذان الامامان » (١) . ويخلص اخيرا الى القول : « ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء ، والهمز والمد والقصر . فكتبوا ذوات الياء بالياء ، وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة اذا كان ما قبلها ساكنا في مثل الخبء والدفء والملء » (٢) .

وبناء على ما تقدم يكون « النحو » في هذا المذهب وحيا وتوقيفا من الله تعالى ، علمه آدم عليه السلام ، ونقله آدم الى ابنائه من البشر الذين راحوا ينطقون بالعربية مضبوطة « معربة » من غير ما حاجة الى كتاب او مرشد . حتى كان يوم ضعفت فيهم هذه « السليقة » (٣) ، فقام ابو الاسود يرسم لهم « العربية » لبعثها من جديد في قرائحهم .

ثانيا : المذهب الاقتباسي

اطلقنا على هذا المذهب اسم « الاقتباسي » لان الرأي فيه يدور حول تأثر العرب لدى وضعهم نحوهم ، بمن سبقهم من الامم الى ذلك ، كاليونان والهنود والسريان ، واقتفائهم خطاهم في هذا العلم .

والقائلون باقتباس النحو عن اليونان بعض المستشرقين . وحجتهم في ذلك ان « قواعد الاعراب » بكل ما يلابسها من تشعب ودقة ، لا يعقل ان تكون الا من خلق النحاة في العصور المتأخرة . اما

---

(١) الصاحبي ، ص ٣٨ .
(٢) نفسه ، ص ٣٩ .
(٣) انظر بحث « السليقة اللغوية » في كتاب « من اسرار اللغة » للدكتور ابراهيم انيس ، ص ٣٤ وما بعدها .

ادلتهم على ذلك فكثيرة ، واهمها اثنان :

□ خلو اللهجات العامية المستخدمة في شتى الاقطار العربية من الاعراب .

□ انتفاء امكان مراعاة قواعد الاعراب ، لما تحتاجه من اليقظة ودقة الملاحظة ، في لهجات الحديث ولغة الخطاب اليومي ، لأن هذه اللغة تميل عادة الى اليسر ، وتتوخى ا'سهولة في التعبير .

وقد غالى بعضهم في ذلك ، فذهب الى حد نفي ان يكون الاعراب كان مرعيا حتى في لغة الكتابة (اللغة الادبية المشتركة) ، وان النحاة انما خلقوه لتزويد لغتهم بنظم شبيهة بنظم اللغة اليونانية ، كي تسمو اللغة العربية الى مصاف اللغات الراقية . ودليلهم على ذلك انه يستحيل ان تكون قواعد الاعراب ــ وهي ما هي في الدقة والتفرع ــ قد نشأت من تلقاء نفسها في عقلية ساذجة كعقلية العرب في عصورهم الاولى (١) .

اما الاقتباس عن الهنود فالرأي فيه يتجلى في خشية المرحوم احمد أمين (بعد ان قرر انه كان للهنود نحو وصرف) من ان تكون حكاية ابي الاسود (يقصد حكايته مع ابنته حين قالت له : ما احسن السماء ــ برفع نون احسن ــ بينما هي تريد التعجب من حسن السماء) قد وضعت في العربية على نمط الحكاية الهندية ، ومفادها (كما نقلها عن البيروني) ان احد ملوك الهند كان يوما في حوض مع نسائه فقال لاحداهن : « ما ود كندهي » ، أي : لا ترشي الماء ، فظنت انه يقول : « مود كندي هي » ، أي : احملي حلوى ، فذهبت وجاءت بها . وعندما انكر الملك فعلها خاشنته في الكلام فاستوحش لذلك وامتنع عن الطعام كعادتهم، واحتجب الى ان جاءه احد علمائهم وسلّى عنه بأن وعده تعليم النحو والصرف . وذهب العالم الى « مهاديو » مصليا مسبحا ، وصائما متضرعا ، الى ان ظهر له واعطاه

(١) علي عبد الواحد وافي ، فقه اللغة ، ص ٢٠٥ .

قوانين يسيرة (كالتي وضعها في العربية ابو الاسود) ووعده التأييد فيما بعدها من الفروع . ورجع العالم الى الملك وعلمه اياها ، وذلك مبدأ هذا العلم .

ويدعم احمد امين خشيته تلك بأن هناك شبها بين ذهاب العالم الهندي الى « مهاديو » مصليا مسبحا ، وبين ذهاب ابي الاسود الى علي بن ابي طالب يسأله المعونة في وضع النحو (١) .

واما الاقتباس عن السريان ، فمن القائلين به المرحوم جرجي زيدان ومن بعده الدكتور انيس فريحة . وخلاصة الرأي فيه ، هو انه ما دام النحو العربي قد نشأ في العراق — والعراق يومئذ حافل بالسريان والكلدان — فلا بد ان يكون قد تأثر عند وضعه بالطريقة التي نظم بها القوم نحو لغتهم . فزيدان يغلب على ظنه ان العرب « نسجوا في تبويبه (أي النحو) على منوال السريان ، لان السريان دوّنوا نحوهم والفوا فيه الكتب في اواسط القرن الخامس للميلاد . واول من باشر ذلك منهم الاسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب المتوفى سنة (٤٦٠م) . فالظاهر ان العرب لما خالطوا السريان في العراق ، اطلعوا على آدابهم ، وفي جملتها النحو ، فأعجبهم ، فلما اضطروا الى تدوين نحوهم ، نسجوا على منواله ، لأن اللغتين شقيقتان . ويؤيد ذلك ان العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق ، بين السريان والكلدان . واقسام الكلام في العربية هي نفس اقسامه في السريانية » (٢) .

ويرجح زيدان كذلك ان يكون ابو الاسود الدؤلي قد اقتبس من الكلدان والسريان طريقة « نقط الاعراب » ، لان هؤلاء « كان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف او تحته لتعيين لفظه او تعيين الكلمة الواقع هو فيها : اسم هي ، ام فعل ، ام حرف » (٣) . بل هو يذهب الى ابعد من ذلك ، فيقول بأن ابا الاسود ربما « تعلم لغة

---

(١) ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ١ ، ص ٢٥١ .
(٣) نفسه ، ص ٢٥٣ .

السريان او اطلع على نحوها فرغب في النسج على منواله ، فعرض ذلك على والي العراقين يومئذ زياد بن ابيه فأبى » (١) .

وقد تابع الدكتور انيس فريحة جرجي زيدان في قوله بالاقتباس عن السريان . فبعد ان عرض لقصة نقط القرآن الكريم نقط اعراب على يد ابي الاسود الدؤلي ، علق عليها قائلا : « ومن يعرف اللغة السريانية القديمة ، يدرك فورا ان هذا النظام من التحريك هو النظام السرياني القديم . ان التفاعل الفكري الحضاري بين العرب وسريان العراق قد بدأ في عهد مبكر ، ويجب ان يكون العرب قد لحظوا ان للسريانية صرفا ونحوا ، لانهم سبقوا العرب في هذا الحقل » (٢) .

ثم ان الدكتور فريحة يرى ان القول بتأثر النحو العربي بالمنطق الارسطوطاليسي يحتاج الى تعديل ، لان « العرب تأثروا اولا بالفكر السرياني قبل ان يتعرفوا الى الفكر الاغريقي . وعمل ابي الاسود الدؤلي يشير الى تأثره بالسريانية » (٣) . ونراه يلح على هذا الرأي وهو يصور الجو الذي وضعت فيه احكام اللغة العربية ، فيقول : « يقال لنا ــ والقول صحيح ــ ان النحو العربي ، او بالاحرى الدراسات اللغوية ، تأثرت بالمنطق الاغريقي وبالفلسفة الميتافيزيقية كما تظهر في مقولات ارسطو . نقول : هذا صحيح الى حد ما ، اذ ان الامر يحتاج الى تعديل وتحديد . ان الاثر الاول كان للسريان النصارى واليهود . ولا شك بأن السريان وضعوا صرفهم ونحوهم في ازمنة تسبق زمن ظهور الاسلام . وقد احتذوا حذو الاغريق في وضع القواعد بشهادة لغوييهم . فكان ان تأثر العرب اولا بالصرف والنحو السرياني ، والامر لا يحتاج الى تدليل ، لأن وضع قواعد العربية ، وفلسفة العامل فيها اسبق في الزمن من عصر الترجمة والاحتكاك الوثيق بالفلسفة الاغريقية وبالعلوم الاغريقية » (٤) .

---

(١) نفسه ، ص ٢٥٢ .
(٢ و ٣) نظريات في اللغة ، ص ٧٥ .
(٤) نفسه ، ص ١٢١ .

ثالثا : المذهب العروبي

وقد سميناه كذلك لان القائلين بــه يرجحون ان « النحــو العربي » من نتاج العقل والقريحة العربيين . ومن المنادين بهــذا المذهب المستشرق « دي بور » الذي يقول في كتابه « تاريخ الفلسفة في الاسلام » : « علم النحو اثر من آثار العقل العربي ، بما له من دقة الملاحظة ومن نشاط في جمع مــا تفرق . وهو اثر عظيم يرغم الناظر فيه على تقديره ، ويحق للعرب ان يفخروا به » (١) .

ومن القائلين بعروبة النحو العربي ، المستشرق « ليتمان » الذي يقول في بعض محاضراته (٢) : « اختلف العلماء الاوروبانيون في اصل هذا العلم ، فمنهم من قال انه نقل من اليونان الــى بلاد العرب . وقال آخرون : ليس كذلك ، وانما كما تنبت الشجرة في ارضها ، كذلك نبت علم النحو عند العرب ، وهذا هو الذي روي في كتب العرب من زمن . ونحن نذهب في هذه المسألة مذهبا وسطا ، وهو انه ابدع العرب علم النحو في الابتداء ، وانه لا يوجد في كتاب سيبويه الا ما اخترعه هو والذين تقدموه . ولكــن ، لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق ، تعلموا ايضا شيئا من النحو ، وهــو النحو الذي كتبــه ارسطوطاليس الفيلسوف . وبرهان هذا ان تقسيم الكلمة مختلف . قال سيبويه : فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، ليس باسم ولا فعل . وهــذا تقسيم أصلي . اما الفلسفة فينقسم فيها الكلام الى اســم وكلمة ورباط ، أي الاسم هو الاسم ، والكلمة هي الفعل ، كما يقال له فــي اللغات الاوروبية « Verb » ، والرباط هو الحرف كما يقال له في اللغات الاوروبية «Conjunction» أي ارتباط . وهذه الكلمات ترجمت من اليوناني الى السرياني ، ومن السرياني الى العربي ، فسميت هكذا في كتب الفلسفة لا في كتب النحو . اما كلمات اسم وفعل وحرف فانها اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت » .

---

(١) نقلا عن عباس حسن في كتابه « النحو الوافي » ، ج ١ ، ص ٣ .
(٢) نقلا عــن كتاب « ضحى الاسلام » ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

ويقول بروكلمان (١) انه « لا يمكن اصدار حكم قطعي مبني على مصادر ثابتة للحسم براي في امكان تأثر علماء اللغة الاولين بنماذج اجنبية . وقد زعم بروينلش «Braeunlich» ان التأثير الاجنبي في علم اللغة العربية بدأ على يد سيبويه الفارسي على حين كان استاذه الخليل عربيا محضا . ولكن يمكن الرد على ذلك بأنه لا يجوز لنا ايضا ان ننظر الى الخليل على انه مؤسس النحو العربي » . ثم يضيف قائلا : « والرأي الذي يتكرر دوما عند علماء العرب ، وهو ان علم النحو انبثق من العقلية العربية المحضة ، يغضي النظر عن الروابط بين اصطلاحات هذا العلم ومنطق ارسطو . وفيما عدا ذلك لا يمكن اثبات وجوه اخرى من التأثير الاجنبي ، لا من القواعد اللاتينية ولا من الهندية . اما اشتراك الفرس في تكوين علم العربية ، فمن الدلائل البارزة عليه استعمال اسم الاشارة في اللغة الفارسية الوسطى (البهاوية) « أي » (= هذا) في معنى : وهو ، او ، يعني . وقد بقي هذا الاستعمال الى اليوم » .

مناقشة وردود

بالرجوع الى اقوال ابن فارس في كون « الاعراب » توقيفيا ، لا يسعنا الا ان نتساءل مع الدكتور مازن المبارك (٢) عما يعنيه مؤلف كتاب « الصاحبي » من ان العرب عرفت النحو قديما ، ثم كان لابي الاسود الدؤلي فضل تجديده واحيائه . فاذا كان المراد من ذلك ان العرب عرفوا النحو النظري بتقسيماته وتفريعاته « فما معنى احاديث العلماء عن سليقة العرب اللسانية وفطرتهم اللغوية ؟ واين احاديثهم عن جهل الاعراب باصطلاحات النحاة وما رووه في ذلك من الاخبار ؟ (٣) واما اذا كان ابن فارس قد قصد من وراء

(١) تاريخ الادب العربي ، ج ٢ ص ١٢٣ وما بعدها .
(٢) النحو العربي ، ص ٢٦ .
(٣) من هذه الاخبار : قيل لاعرابي « أتهمز اسرائيل ؟ » فقال : « اني اذن لرجل سوء » قالوا : « وانما قال ذلك لانه لم يعرف من الهمز الا الضغط والعصر . » وقيل لآخر : « أتجر فلسطين ؟ » فقال : « اني اذن لقوي » ، الخ ...

قوله « ان العرب عرفت النحو ــ كما نعتقد نحن ــ معرفة عملية تطبيقية لا اثر فيها للقواعد النظرية ولا للاصطلاحات ، ثم بدأت السلائق تفسد والألسن تتعثر ، واحتاج القوم الى ضوابط نظرية يفزع اليها الناشئون ، فقام من وضعها للناس معتمدا في وضعها على واقع اللغة القديم ، فكان عمله ــ لذلك ــ بعثا وتجديدا ، فذلك امر معقول » .

ثم ، ألم يسمع ابن فارس واضرابه ممن دفع بهم اعتزازهم بعروبتهم ولسانهم الى مجانبة النظر الى اللغة نظرة موضوعية ، بما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام من انه دخل المسجد مغضبا ، وقد بلغه ان رجلا نال من عروبة سلمان الفارسي ، فقال : « يا ايها الناس ، ان الرب واحد ، والاب واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب او ام ، وانما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي » ؟ وان كانوا قد سمعوا بذلك ، أفما رأوا في كلامه صلى الله عليه وسلم اقرارا بأنه ، وان بقيت في ألسنة صحابته من غير العرب بقية من لكنة ، فان ذلك لا يقدح في عروبتهم ، لأن اللغة تكتسب بالممارسة والمران ، ولا تولد مع الانسان ، كما تصوروا هم حين حدثونا عن « السليقة العربية » وافاضوا الى درجة يخيل معها لمن يطالع ما قالوه بأنه لا يمكن لغير عربي ان يجيد اللغة العربية ؟ لقد ظنوا ــ ويا للاسى ــ ان «أمر الكلام بالعربية يرتبط ارتباطا وثيقا بالجنس العربي . ولذا ينكرون على الفارسي او اليوناني امكان اتقان هذه اللغة كما يتقنها أهلوها من العرب ، مهما بذلا في تعلمها ، وثابرا فى المران عليها ، بل يظلان في رأيهم اجنبيين عن اللغة كما هما اجنبيان عن الجنس العربي » (١) .

واما الدليل الذي ساقه ابن فارس على ان الصحابة كانوا على معرفة بالعربية لكتابتهم المصحف على طريقة النحويين ومقاييسهم وتعليلاتهم ، فانه مغلوط ومردود . ذلك ان القرآن الكريم كان بلا

---

(١) ابراهيم انيس ، من اسرار العربية ، ص ٣٦ .

ريب اهم المصادر التي اعتمدها النحاة لدى استقرائهم ظواهر اللغة العربية لوضع قواعدها . وعليه تكون قواعد النحاة وتعليلاتهم قد اتت موافقة لما في المصحف الشريف ، لا العكس . ونعتقد بأن ايمان صاحب «معجم مقاييس اللغة» المطلق بأن اللغة « وحي وتوقيف » من رب العالمين ، قد حجب عنه ان النحاة هم الذين قاسوا على رسم المصحف ، فعكس الراي وقال بأن الصحابة والتابعين رسموا المصحف على ما يعلله النحويون ، واستنتج من ذلك ان « النحو » من معارف اولئك الصحابة والتابعين ، وصل اليهم « وحياً » عبر ابيهم آدم الذي علمه الله الاسماء كلها .

وللرد على القائلين بأن النحو العربي مقتبس عن قواعد الاغريقية نسوق هذا الراي للدكتور علي عبد الواحد وافي (١) :

« ان علماء القواعد العربية لم يكونوا على علم باللغة اليونانية وقواعدها ، ولم تكن لهم صلة ما بعلماء القواعد من الاغريق . هذا الى ان قواعد اللغة العربية تختلف في طبيعتها ومناهجها اختلافا جوهريا عن قواعد اللغة الاغريقية . فلو كانت قواعد العربية قد اخترعت على غرار قواعد اليونانية كما يزعمون لجاءت متفقة معها ، او على الاقل مشبهة لها في اصولها ومناهجها » .

ثم يضيف قائلا :

« واذا امكن ان نتصور ان علماء القواعد تواطأوا جميعا على ذلك (أي على ان النحاة العرب نقلوا عن النحاة الاغريق) ، فانه لا يمكن ان نتصور انه تواطأ معهم عليه جميع العلماء من معاصريهم ، فأجمعوا كلمتهم الا يذكر احد منهم شيئا ما عن هذا الاختراع العجيب » .

وهو يقدم الدليل على فساد الراي القائل بأن النحاة العرب اخترعوا الاعراب اختراعا ، وانه لم يكن موجودا في العربية ، المحكي

---

(١) فقه اللغة ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ — ٢٠٩ .

منها والمكتوب ، قائلا بأن « اوزان الشعر العربي وقواعده الموسيقية تقوم على ملاحظة نظام الاعراب في المفردات. فبدون اعراب الكلمات، تختل اوزان هذا الشعر ، وتضطرب موسيقاه . ثم هناك اقوى من هذا كله ، تواتر القرآن الكريم ووصوله الينا معرب الكلمات » (١) .

ثم انه من غير المعقول ان يزعم امرؤ ان « الاعراب » من نسج خيال النحاة « ارتجلوا قواعده ارتجالا ، دون اساس اعتمدوا عليه ، ودون سماع بعض ظواهره على الاقل من افواه الفصحاء من العرب في صدر الاسلام » (٢) . وادعاء القائلين بخلو اللهجات العربية الحديثة من اية ظاهرة اعرابية باطل تماما . فهذه آثار تنوين النصب في امثال « شكراً » و « عفواً » و « ابداً » ، و « حتماً » الخ .. باقية في معظم اللهجات المستعملة اليوم ، ان لم نقل في جميعها . وكذلك آثار نون النسوة في مثل « تقولين » و « تريدين » وغيرهما من الافعال ، ماثلة في كثير من اللهجات العربية الحديثة .

وبعد ، فاذا كان « الاعراب » ملازما للعربية (الفصحى او المشتركة) لأكثر من دليل ، لم يكن النحاة بحاجة الى اكثر من امعان النظر في مصادر لغتهم الطبيعية ، القرآن والحديث والشعر ونثر امراء البيان ليستخلصوا منها مناهج الاعراب ويبوبوها ويصوغوا قوانينها وقواعدها . وهذا ما فعلوه مشكورين . وما دام «الاعراب» خصيصة من خصائص العربية لا تشاركها فيه اللغة التي زعم المستشرقون النقل عنها ــ اللغة اليونانية ــ فلا مجال للقول بتأثر النحو العربي بقواعد تلك اللغة .

---

(١) يقول ابن الجزري (النشر في القراءات العشر ، ج ١ ص ٦) « لما خص الله تعالى بحفظه (أي القرآن الكريم) من شاء من اهله ، اقام له ائمة ثقات لتصحيحه ، وبذلوا من انفسهم في اتقانه ، وتلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم حرفا حرفا ، لم يهملوا منه حركة ولا سكونا ... » ويقول (ارثر جفري) في مقدمته على كتاب (المصاحف) لابن ابي داود السجستاني : « وكانت هذه المصاحف كلها خالية من النقط والشكل . فكان على القارىء نفسه ان ينقط ويشكل هذا النص على مقتضى معاني الكلمات » .

(٢) من اسرار العربية ، ص ٢١٦ .

اما اقتباس ابي الاسود نقط الاعراب عن الكلدان والسريان الذي رجحه زيدان وفريحة ، فانه ، وان سلمنا بصحة وجوده ، لا يشكل دليلا علميا على اقتباس العرب نحوهم برمته منهم . فعمل ابي الاسود ـ على جلال قدره وخطره في تاريخ النحو العربي ـ لا يمثل « النحو » ، حتى ولا في مراحل وضعه الاولى . وعلى هذا الاساس ، يبقى القول بأن العرب « نسجوا في تبويب النحو على منوال السريان » من قبيل التعميم الذي يأباه المنطق العلمي ، لأن التشابه في ظاهرة معينة من ظواهر علم من العلوم لا يمكن بحال من الاحوال ان ينسحب على العلم بكامله . كما ان الشبه الذي ساقه المرحوم احمد امين بين قصة العالم الهندي مسترشدا بـ «مهاديو» لوضع اصول نحو اللغة الهندية ، وقصة ابي الاسود مع ابنته واسترشاده بالامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ، لوضع قواعد العربية ، لا يمكن ان يقوم دليلا على نقل العرب نحوهم عن الهنود ، كما قد يتوهم القارىء ، وان لم يصرح صاحب « ضحى الاسلام » بـه .

واما عن المذهب الاخير فنقول بأنه اذا كان علم النحو العربي قد تأثر بعد زمن على نشأته بالمنطق والفلسفة اليونانيين ، من حيث منهجية البحث ، أو من حيث القول بالعلل والمعلولات وغيرها من تفريعات النحو ، فان كل ذلك لا يقدح ابدا في كون نشأته الاولى عربية صرفا . فالمنطق والفلسفة لم يصبغا النحو العربي بصبغتهما الا بعد زمن غير قليل على نشأته . اضف الى ذلك انها صبغة طفت على اطره الخارجية ، ولم تتغلغل الى اصوله التي كانت وستبقى عربية ، لأنها نتاج استقراء العلماء العرب الاول لنصوص لغتهم قرآنا وحديثا وادبا ، منظوما ومنثورا . ولعل هذا هو ما قصده بروكلمان حين قال بأنه فيما عدا العلاقة بين اصطلاحات علم النحو ومنطق ارسطو (وهي علاقة تظل على كل حال في الشكل لا في الاساس)، لا يتسنى للباحث اثبات وجه من وجوه التأثير في القواعد العربية .

بقي ان نقول ان الذي دفع الى هذا البحران من الجدل ، وذلك الفيض من التأويل ، هو تعدد الروايات عن نشأة النحو وتضاربها ، وانعدام كل أثر متصل بها ، و « لأنه لا يكاد ينتظر ان يكشف النقاب بعد عن مصادر جديدة تعين على بحثها ومعرفتها » (١) . واما القول بأننا « ندخل لاول مرة في دائرة التاريخ الصحيح مع طبقة اساتذة الخليل وسيبويه : ١) عيسى بن عمر الثقفي ، ٢) ابو عمرو بن العلاء ، ٣) يونس بن حبيب » (٢) ، فينبغي النظر اليه من زاوية موضوعية صرف ، باعتبار ان ما حفظه لنا كتاب سيبويه مـن آراء هؤلاء الاساتذة ،وثيقة تاريخية مكتوبة لا يرقى اليها أي شك .

واما القول بأننا « نرى فجأة كتابا ضخما ناضجا هـو كتاب سيبويه ، ولا نرى قبله ما يصلح ان يكون نواة تبين ما هو سنة طبيعية من نشوء وارتقاء . . . » (٣) ، فالرد عليه انه ، وان لم يكن بين ايدينا مؤلفات سابقة على « الكتاب » ، فقد نقل الينا الكثير عن النشاطات التي كان يقوم بها الرواد السابقون على سيبويه . ومن الطبيعي ان تكون تلك النشاطات من البساطة والسذاجة باديء الامر ، بحيث يتسنى ان تنضج وتستوي سوقها حسب سنة الارتقاء والنشوء . ولا غرو ، فكتاب سيبويه نفسه سجل حافل بآراء اساتذته وبعض من اساتذتهم ، ولا بد ان يكون قد سبق اولئك وهؤلاء اساتذة آخرون كان لهم فضل تسجيل الملاحظات والانظـار اللغوية ، وتمهيد السبيل امام عبقرية سيد النحاة سيبويه .

ولعل لنا في ما حفظته كتب الاخبار واللغة من تقريب خلفاء بني امية للشعراء والادباء ، واثارة مسائل من النقد الادبي فـي مجالسهم ، دليلا على ان الاهتمام باللسان العربي سابق بكثير على العصور التي تعارف المؤرخون على جعلها منطلقا لعلم النحو . فهذا عبد الملك مثلا ينصب نفسه حاميا للغة ، ويبذل كل ما في وسعه

---

(١) بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، ج٢ ، ص ١٢٣ .
(٢) نفسه ، ص ١٢٨ .
(٣) ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

لصونها من الزلل . اليس هو القائل ، وقد سئل عن تعجل الشيب الى رأسه ، « شيبتني مواقف الخطابة وتوقع اللحن » ؟ ألم يظهر اساه لفساد لسان ابنه الوليد في قولته المشهورة « أضر بالوليد حبنا له فلم نرسله للبادية » ؟ فلا بد والحالة هذه ، ان يشكل ما كان يدور في تلك المجالس الادبية البذور الاولى للانظار اللغوية التي راحت تتكاثر وتنمو مع الزمن ، حتى كان منها « النواة الصالحة » لظهور الكتاب فيما بعد . واذا لم يكن من الجائز اعتبار تلك الانظار اللغوية « نحوا » بالمعنى الدقيق للكلمة ، فلا أقل من ان نعتبرها « نهجا نحويا » سارت على هديه الاجيال التالية حتى كان لنا من نتاج قرائحها ذلك العلم الشامخ البناء .

وبعد ، فلا شك في ان نشأة النحو من الغموض بمكان . لكن لا شيء يمنع على ما نظن من الحدس والافتراض لجلاء ذلك الغموض . وهذا ما سنحاوله في الصفحات القادمة .

الفصـــل الثـــاني

اسباب وضع النحـــو

أشرنا في الفصل السابق الى انه من أهم البواعث على اشتغال امة من الامم بأمور لغتها « قيام تضاد بين لغتين او مرتبتين من لغة واحدة » . وقد كان للعرب مراتب عدة في لغة التخاطب والحديث . لكنه كان لهم ايضا « لغة ادبية مشتركة » انتظمت الآداب الجاهلية شعرا ونثرا ، مترفعة عن كل تلك المراتب المتمثلة في اللهجات القبلية . وتكاد الآراء تجمع على ان مهد هذه اللغة المشتركة هو البيئة المكية ، وما حولها من مدن الحجاز ، نظرا لما لتلك البيئة من أهمية روحية (وجود الكعبة محجة القبائل تزور فيها اصنامها وتتقرب اليها زلفى) واقتصادية (كون مكة مركز الاسواق العربية الموسمية مثل « عكاظ » التي كانت تقام في شهر ذي القعدة ، و « المجنة » ، وكانت تعقد في اواخر هذا الشهر ، و « ذي المجاز » وكانت في اوائل ذي الحجة ، و « خيبر » ، وكانت تجيء في اعقاب موسم الحج) ، وثقافية (لم تكن الاسواق المذكورة مقصورة على العمليات التجارية وحدها ، بل كانت الى جانب ذلك فرصا للقاء أهل الادب من كل حدب وصوب ، ينشدون فيها القصائد ، ويلقون الخطب ، وتقوم بينهم المساجلات والمناظرات ، ويحكم فيها بالغلبة والنبوغ لفريق على فريق) .

ولعل هذه « الاسواق الادبية » خير شاهد على وجود اللغة المشتركة ، اذ لا يعقل ان يتم التباري بين الادباء ـ على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم ـ الا في اطار لغة موحدة يفهمها عامة العرب ،

ويطربون لها ايما طرب (١) . ومما لا ريب فيه ان القرآن الكريم قد انزل بهذه اللغة المشتركة والا لتعذر فهمه على كثير من الناس . وما ان تمكن الدين الجديد من النفوس ، وادرك كل عربي ان كتابه موحى به بلسان عربي مبين ، حتى زاد تمسكه بهذا اللسان واعتزازه به وتحمسه وطربه له .

لقد كان اهتمام العرب بلغتهم قبل الاسلام نابعا من شعور قومي ومبنيا على اساس من الحماسة العاطفية . وجاء الاسلاْم ، وبهر العرب بطابعه العالمي الشامل (لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى) ، وانساهم الى حين اعتزازهم القومي بلغتهم . لكنهم ما ان انطلقوا في اقطار الارض ، واتصلوا بغيرهم من الاقوام ، واحسوا باختلاف لسانهم عن السنتهم ، حتى عاودهم الشعور بروعة لغتهم وتميزها من غيرها من اللغات التي صادفوها في الامصار المفتوحة . وهكذا اندفعوا ينشرونها جنبا الى جنب مع رسالة الاسلام ويحاولون تلقينها لمن ارتضوا العقيدة الجديدة دينا . ولم يقف بهم الامر عند هذا الحد ، ولم يطل بهم الزمن ، حتى استبدلوا بها لغات الدواوين من فارسية ورومية وقبطية .

وازاء هذه الاوضاع الجديدة كان لا بد للغة ان تشغل حيزا كبيرا من اهتمام العرب . وكان طبيعيا ، والحالة هذه ، ان ينتقل اهتمامهم بها من دائرة العاطفة والحماسة والطرب ، الى نطاق التفكير والنظر العلمي ، فيسعوا لايجاد الوسائل الكفيلة بايصالها الى الشعوب التي دخلت في الاسلام افواجا ، وبحمايتها ، من جهة اخرى ، من غوائل الفساد التي يمكن ان تساورها نتيجة احتكاكها بلغات تلك الشعوب ، وتداولها على السن لم تهيأ في الاصل للنطق بحروفها ، ولم تمرن على استخدام اساليبها وتراكيبها استخدام ابنائها الاصليين .

لكن الدارس ، مهما حاول استنطاق كتب الاولين عن البواعث

(١) ابراهيم انيس ، اللغة بين القومية والعالمية ، ص ١٧٦ .

التي حدت اللغويين الاوائل الى وضع « النحو » ، فانه لا يخرج من فيض الروايات التي تقدمها ـ على تباينها واختلاف تفاصيلها ـ بغير نتيجة اساسية واحدة : شيوع « اللحن » على السنة الناس لبعدهم عن مهد لغتهم الاول وفساد سلائقهم. ويمضي في الدرس والبحث، فاذا هذه الكلمة الصغيرة التي لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب اللغة « اللحن » ، اخطر بكثير مما كان يتصور . فما اللحن ؟

اننا بالرجوع الى « لسان العرب » (مادة لحن) ، نراه يسند الى ابن بري وغيره ان للحن ستة معان يمكن اختصارها كما يلي :

١ ـ **الخطأ في الاعراب** : يقال : لحن في كلامه يلحن (بفتح الحاء) فهو لحّان ولحّانة . واللحن ترك الصواب في القراءة والنشيد ونحو ذلك .

٢ ـ **اللغة** : ومنه قول عمر رضي الله عنه : تعلموا الفرائض والسنن واللحن كما تعلمون القرآن ، يريد اللغة . وجاء في رواية : تعلموا اللحن في القرآن كما تتعلمونه ، يريد تعلموا لغة العرب باعرابها .

٣ ـ **الغناء وترجيع الصوت والتطريب**

٤ ـ **الفطنة** : يقال : لحنت لحنا اذا فهمته وفطنته ، فلحن هو عني لحنا ، اي فهم وفطن . وقد حمل عليه قول مالك بن اسماء : « وخير الحديث ما كان لحنا » . ومنه قوله ، صلى الله عليه وسلم : « لعل بعضكم ان يكون الحن بحجته » ، اي افطن لها واحسن تصرفا .

٥ ـ **التعريض والايماء** : منه قول القتال الكلابي :

« وقد لحنت لكم لكيما تفهموا
ووحيت وحيا ليس بالمرتاب » .

٦ ـ **المعنى والفحوى** : كقوله تعالى : « ولتعرفنهم في لحن القول » ، اي في فحواه ومعناه .

ويبدو ان « اللحن » بالمفهوم الاول ، اي الخطأ في الاعراب (او بالاحرى مجانبة الصواب عند القراءة او الكلام) ، قد عرف منذ عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، بدليل ما جاء من قوله : « انا من قريش ونشأت في بني سعد ، فأنى لي اللحن » (١) . وقول ابي بكر رضي الله عنه : « لان اقرأ فاسقط احب الي من ان اقرأ فألحن » (٢) . وقول عمر رضي الله عنه : « لأن اقرأ فاخطيء احب الي من ان اقرأ فألحن ، لأني اذا اخطأت رجعت ، واذا لحنت أفتريت » (٣) . وقول بعض السلف : « ربما دعوت فلحنت فأخاف الا يُستجاب لي » (٤) .

وهذه الروايات جميعا تسلم الى امر واحد ، وهو ان اللحن ، او الخطأ اللغوي ، ما كان يلتفت اليه في تلك الايام الا اذا تم في نطاق « القراءة » ، وعلى الاخص قراءة النصوص الدينية وما يمت اليها بصلة ، لان اللحن يصبح عند ذلك « افتراء » على كلام الله ، بدليل قول عمر اعلاه . وهذا يعني ان اللحن لم يكن ليدعو الى الاستنكار ، الا اذا تم على صعيد اللغة النموذجية الادبية ، لغة الكتابة ، لا لغة الحديث والتخاطب . ولا غرو بعد ذلك ان نقرأ مثل هذه العبارة على لسان احمد بن فارس : « وقد كان الناس قديما يجتنبون اللحن فيما يكتبونه او يقرأونه اجتنابهم بعض الذنوب » (٥) .

ولا بد ان اللحن الذي لم يكن ليفلت منه ناطق بالعربية ، حتى في ميعة صباها ، ما لبث ان اخذ يستحكم بعد اختلاط العرب بالاقوام الاعجمية ، وزاد من حدة ملاحظته ما كان يسمع على السنة الاعاجم من استعمالات مغلوطة ، فأصبح هاجس المشتغلين باللغة ، والساهرين على ضبطها ، والغيارى على نقائها وصفائها . ولا ريب في ان مفهومه بمعنى الخطأ اللغوي قد طغى ، او كاد ، على سائر المفاهيم ، حين اخذ النحاة يكثرون من ترديده ، ولا سيما بعد ان

(١و٢) المزهر ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ .
(٣و٤) الزجاجي ، الايضاح في علل النحو ، ص ٩٦ .
(٥) الصاحبي ، ص ٦٦ .

تعاظم نفوذهم ايام العباسيين ، فكان بديهيا ان نراهم يتذرعون به وهم يحدثوننا عن البواعث على وضع النحو ، اذ ان القصد من هذا العلم هو ضبط اللسان، وحماية الناطق بالعربية من الزلل والانحراف عن الصواب .

ولكن ، اذا كان ما تركته لنا الكتب من اقوال في اللحن ايام النبي وصحابته لا يقبل الجدل في وقوعه على مستوى اللغة النموذجية ، فان ما نقع عليه من روايات عن اللحن الذي هو في اساس وضع النحو ، يترك الباحث امام بضعة اسئلة :

ــ هل كان اللحن يتم على مستوى اللغة الادبية وحدها ، ام انه كان يعتبر الاخطاء التي كانت تقع في الكلام اليومي لحونا ؟

ــ هل كان اللحن يقع في مجال « الاعراب » وحده ، ام كان يتجاوزه الى سائر فروع اللغة ؟

ــ أليس الحديث عن « السليقة اللغوية » وفسادها ، لبعد الناس عن مهد لغتهم الاول ، ضربا من الوهم ؟

ــ الم يكن مبعث الخوف من اللحن ، هو الحرص على قدسية النص الديني ، قبل ان يكون مبعثه أي امر آخر ؟

لا مناص قبل محاولة الاجابة على هذه الاسئلة من عرض نماذج من « اللحن » كما وردت في كتب الاقدمين ، عسى ان تهدينا الى كشف السر عن هذه الظاهرة التي قالوا لنا انها الباعث على وضع علم النحو :

روى ابو الطيب اللغوي (١) في جملة الاسباب الداعية الى وضع النحو ، قال : « اخبرنا محمد بن يزيد عن الجرمي عن الخليل قال : لم يزل ابو الاسود ضنينا بما أخذه عن علي عليه

(١) مراتب النحويين ، ص ٨ـ٩ . وقد جاء في كتاب « اصلاح المنطق » لابن السكيت (ص ٢٩٧) : « وزعم الفراء ان اول لحن سمع بالعراق : هذه عصاتي » بعد قوله : « وتقول : هذه عصاي . قال الله عز وجل : « هي عصاي اتوكأ عليها » .

السلا م، حتى قال له زياد : قد فسدت السنة الناس ، وذلك انهما سمعا رجلا يقول : سقطت عصاتي فدافعه ابو الاسود » .

وقال السيرافي (١) : « ويقال ان السبب في ذلك (اي في وضع النحو) انه مر بأبي الاسود سعد ، وكان رجلا فارسيا من اهل بوزنجان ، كان قد قدم البصرة مع جماعة من اهله فدنوا من قدامة بن مظعون الجمحي (٢) ، فادعوا انهم اسلموا على يديه ، وانهم بذاك من مواليه . فمر سعد هذا بأبي الاسود وهو يقود فرسه . قال : مالك يا سعد لا تركب ؟ قال : ان فرسي ضالع (٣) . فضحك به من حضره . قال ابو الاسود : هؤلاء الموالي قد رغبوا في الاسلام ودخلوا فيه فصاروا لنا اخوة ، فلو علمناهم الكلام . فوضع باب الفاعل والمفعول لم يزد عليه » (٤) .

وجاء في « اصلاح المنطق » (ص ١٩٠) : « ويقال قد غلت القدر تغلي غليا وغليانا ، ولا يقال : غليت . قال ابو الاسود :

ولا أقول لقدر القوم قد «غليت»   ولا أقول لباب الدار «مغلوق»

ولسنا نظن ان هذه النماذج الثلاثة للحن يمكن ان تشكل سببا حقيقيا لوضع النحو بمعناه الوظيفي ، كما وهم الرواة واوهمونا معهم . فهي انما ينبغي ان تدرس في نطاق « علم اللهجات » من جهة، وعلمي « الاصوات » و « التشكيل الصوتي » من جهة ثانية . فالمثال الاول يقودنا الى القول بأنه اتى على بعض العرب حين لم يعودوا يتقيدون تماما باعراب اواخر الكلمات ، وان ذلك الرجل الذي نطق بكلمة « عصاتي » وجد نفسه ، اذا اراد ان يقول « عصاي » ، ازاء حرف ساكن يكاد لا يسمع بعد حرف المد ، فأقحم بين الاسم وياء

---

(١) اخبار النحويين البصريين ، ص ١٨ .

(٢) صحابي مشهور ولي البحرين لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم عزله وحدّه في شرب الخمر .

(٣) زاد ابن النديم في « الفهرست » : اراد ظالع .

(٤) ورد الخبر في طبقات الزبيدي (ص ٢٢) مسندا الى ابن ابي سعد .

المتكلم تاء التأنيث ، على اعتبار ان العصا من المؤنث (١) .

والمثال الثاني (فرسي ضالع) داخل كذلك في باب اللهجات والصوتيات، لان الضاد والظاء يتعاقبان على ألسنة كثير من الناطقين بالعربية في بعض الاقطار والامصار (٢) . ثم ان الرجل الذي سمع منه ذلك الكلام فارسي ، وليس في حروف لغته ضاد ولا ظاء ، ولا بد انه لاحظ تعاقب الحرفين على ألسنة العرب الذين يعايشهم دون ان يتمكن في كل مرة من التمييز بينهما في النطق والاستعمال ، فكان ان وقع في ما وقع فيه من خطأ . ولكن العجيب في هذه الرواية ان ينسب بعدها الى ابي الاسود وضع باب الفاعل والمفعول . فلسنا ندري ، والحق يقال ، ما دخل هذين البابين من النحو الوظيفي في لحن سعد الفارسي المذكور . فالرجل قد استعمل حرفا من حروف الابجدية مكان حرف آخر ، واذا نظرنا الى الجملة التي نطق بها ، وجدناها من الناحية التركيبية سليمة تماما . وهي بعد جملة اسمية ، فلماذا يضطر ابو الاسود بسببها الى وضع بابي الفاعل والمفعول ، وهما من مستلزمات الجملة الفعلية ؟

والمثال الثالث ــ وقائله ابو الاسود المفروض انه واضع علم النحو وابوابه الاولى ــ يمثل مرحلة من التطور اللهجي ، وهو لا يصلح بالتالي لأن يشكل باعثا على وضع النحو بوصفه العلم الذي ينظم الكلام ويحدد وظائف مفرداته . ونحن لا نملك ان نجزم بما اذا لم يكن ابو الاسود يقول : « غليت » و « مغلوق » ، في كلامه اليومي ومخاطباته العادية . لكن ما نملك الجزم به على كل حال ، هو انه ، لا ابو الاسود ، ولا معاصروه ، ولا حتى نحن اليوم ، نقول او نكتب ــ اذا كان الموقف موقف استخدام اللغة الفصحى ــ هاتين اللفظتين

---

(١) لا بد من الاشارة الى ان بعض اللهجات العربية المستخدمة اليوم تلجأ ــ كما في لبنان مثلا ــ الى استعمال كلمة « عصاية » بمعنى « العصا » ، ثم تضيف اليها ياء المتكلم : « عصايتي » .

(٢) نذكر على سبيل المثال لا الحصر : جنوب لبنان ، وبعض اقاليم المغرب العربي، والعراق .

بصيغتهما العامية . فالعرب اليوم في معظم اقطارهم وامصارهم لا يقولون في لغة الحديث اليومي الا « غليت » والا « مغلوق » (قياسا على : الباب مفتوح) ، لكنهم سرعان ما تستقيم السنتهم حين يستخدمون اللغة الادبية النموذجية (الفصحى) ، فلا يقولون الا « غلت » والا « مغلق » .

الى جانب الامثلة الثلاثة السابقة ، تطالعنا كتب اللغة والادب بنماذج من اللحن كانت تجري على السنة طبقة من الموالي والاعاجم ، وكلها داخل في بابي « علم الاصوات » و « التشكيل الصوتي » ، ومردها جميعا الى عجز اللسان الاعجمي ، في اول عهده بنطق الحروف العربية ، عن الاداء الصحيح ، لانتفاء وجود بعض هذه الحروف في لغة الاعاجم الام .

روى الجاحظ (١) ان صهيب بن سنان النمري الرومي - صاحب رسول الله - كان يقول : « انك لهائن » ، يريد : انك لحائن (اي هالك ، من « الحين » وهو الهلاك) . وانه كان لرجل بالبصرة جارية تسمى « ظمياء » ، فكان اذا دعاها قال : يا ضمياء (بالضاد) . فقال له ابن المقفع : قل : يا ظمياء ، فناداها يا ضمياء. فلما الح عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثا قال له : هي جاريتي او جاريتك ؟ وان زيادا النبطي دعا غلامه ثلاثا فلما اجابه قال : من لدن داْوتك الى ان قلت . لبّي ، ما كنت تصنأ ؟ يريد : من لدن دعوتك الى ان اجبتني ما كنت تصنع ؟

ظاهرة اخرى سجلها الرواة في باب اللحن ، يمكن ان نطلق عليها اسم « الخطأ الدلالي » . ويتمثل هذا الخطأ في استعمال كلمة مكان اخرى لقرابتهما في اللفظ (يمكن اعتبار استعمال كلمة « ضالع » بدلا من « ظالع » للدلالة على العرج في المشي ، في رواية سعد الفارسي من هذا القبيل) ، او للتشابه في الصورة التي يستدعيانها الى ذهن المتكلم ، كهذا الذي رواه الجاحظ (٢) من ان

(١و٢) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢١٠ وما بعدها .

عبيد الله بن زياد كان يقول : افتحوا سيوفكم ، يريد : سلوا سيوفكم . وان يوسف بن خالد (١) كان يقول : هذا احمر من هذا ، يريد : أشد حمرة .

ومثل هذه الاخطاء ليس مقصورا على الاجانب عن اللغة وحدهم ، وانما يتعداه الى بعض ابناء اللغة انفسهم . وظاهرة الخطأ الدلالي من اختصاص « الالسنية العامة » لانها داخلة في باب « علم الدلالة » ، ولا تشكل بالتالي مسوغا لوضع النحو بوصفه علما لتنظيم الكلام ، وبيان وظائفه الاعرابية .

نماذج اخرى وردت عن اللحن ، وكلها يندرج تحت باب « الفوارق اللهجية » ، أو ما سماه اللغويون القدامى بـ «اللغات»، ولا يؤلف باعثا على وضع النحو بمعناه الوظيفي :

روى الجاحظ (٢) ان يوسف بن خالد كان يقول : لا ، حتى يشجه (بكسر الشين) يريد : حتى يشجه (بضم الشين) . وان نبطيا سئل : لم اشتريت هذه الاتان ؟ فقال : اركبها وتلد لي (بفتح اللام من «تلد» بدلا من كسرها وهو الصواب) .

وذكر الزبيدي في طبقاته (٣) خلال ترجمة بكر بن حبيب السهمي (٤) ان ابن ابي اسحاق قال لبكر : ما ألحن في شيء ؟ فقال : لا . قال فخذ علي كلمة (بكسر الكاف وتسكين اللام) . فقال : هذه . قل : كلمة (بفتح الكاف وكسر اللام) . وانه قربت سنورة من ابن ابي اسحق فقال : اخسَي . فقال له بكر بن حبيب : اخطأت . انما هو : اخسئي .

---

(١) هو اول من جلب رأي ابي حنيفة الى البصرة ، وكان له بصر بالرأي والفتوى ، وله كتاب في الشروط .

(٢) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .

(٣) ص ٤٦ .

(٤) عده في الطبقة الرابعة من النحويين البصريين ، وقد اخذ عن عبدالله بن ابي اسحاق الحضرمي .

وجاء في « اصلاح المنطق » (١) : تقول : ما له دار ولا عقار (بفتح العين) ، ولا تقل : عقار (بكسر العين) . وفي « باب يتكلم فيه بفعلت مما تغلط فيه العامة فيتكلمون بأفعلت » (٢) : وتقول : قد نجع فيه الدواء ، وقد نجع في الدابة العلف ينجع (بفتح الجيم) ولا يقال : قد انجع فيه . وقد شغلته ، ولا يقال : اشغلته . . . الخ.

هذا الى جانب ما عالجه اللغويون من اخطاء العامة في كتب خاصة ، مثل « اصلاح المنطق » لابن السيكت ، و « أدب الكاتب » لابن قتيبة ، و « لحن العوام » لأبي بكر الزبيدي ، و « ما تلحن فيه العوام » لعلي بن حمزة الكسائي ، وغيرها . وكلها اخطاء تدخل في باب تطور اللغة عن طريق ما يلحق صيغ الكلمة من تحريف ، وهو أمر قديم في العربيّة ، عده القدماء في باب « اختلاف اللغات » ، كما هو الحال في ما اسموه « تلتلة بهراء » التي تكسر حروف المضارعة بدلا من فتحها فتقول : نِستعين (بكسر النون الاولى) .

اما « كلمة » (بكسر الكاف وتسكين اللام) فلهجة تميمية . واما « كلمة » (بفتح الكاف وكسر اللام) فلهجة حجازية (٣) . واما « اخسَي » و « اخسئي » فهما من باب تسهيل الهمزة او اثباتها ، وكل ذلك داخل في مضمار الفروق اللهجية .

وبعد ، فلا بد قبل الانتقال الى الظاهرة التي يمكن عدها بحق باعثا على وضع النحو ، الا وهي ظاهرة الاعراب ، من السؤال عما حدا الاولين الى هذا الخلط العجيب بين انواع اللحن ، حتى عدوها جميعا بواعث على وضع النحو . الجواب على ذلك في اعتقادنا ان من سموا « النحاة » في العهود الاولى ، لاشتغالهم باللغة ، لم يكونوا كذلك ، اذا نحن اخذنا باعتبارنا الناحية الدلالية لهذه اللفظة كما اصبحت تعني فيما بعد . فالحق ان اولئك الرواد الغيارى على العربية من المؤدبين والمعلمين ، لم يكونوا نحاة بالمعنى الصحيح لهذه

(١) ص ١٦١ .
(٢) ص ٢٢٥ .
(٣) ابن جني ، الخصائص ، ج١ ، ص ٢٧ .

الكلمة . فلقد قاموا يجمعون ويستقرئون ويلاحظون ويستنبطون ، وكان طبيعيا ان ينظروا الى اللغة على أنها « وحدة » تامة لا يمكن تجزئتها الى فروع واختصاصات ، كما اصبح الامر على نطاق ضيق فيما بعد ، وكما اصبحنا ننظر اليها اليوم على نطاق أوسع بكثير ، ولا سيما بعد ظهور الالسنية الحديثة . ولقد اصطدم اولئك المشتغلون باللغة بظواهر عدة :

- ظاهرة بناء الكلمة الصوتي .
- ظاهرة الصيغ الدلالية .
- ظاهرة الصيغ الصرفية .
- ظاهرة الصيغ الاعرابية .

وحاولوا اكتشاف بعض القوانين المتعلقة بكل ظاهرة . وحين لاحظوا ما اعتور كلا منها من انحراف ، عدوا كل ذلك لحنا ، وراحوا يحاربونه بكل ما اوتوا من غيرة على اللغة ومحبة لها . وجاء بعدهم من سماهم « نحاة » وزعم ان دافعهم لوضع النحو هو ما فشا على السنة الناس من لحن ، فكان ذلك الخلط الذي نراه ونحن ننظر في الاسباب الداعية الى نشوء هذا العلم الجليل .

ننتقل بعد هذا الى ظاهرة اللحن في الاعراب ، فنبحث اولا في دلالة هذه الكلمة (الاعراب) قديما وحديثا . جاء في «لسان العرب» (مادة عرب) : « وقال الازهري : الاعراب والتعريب معناهما واحد، ، وهو الابانة . يقال : اعرب عنه لسانه وعرّب ، أي أبان وافصح . وأعرب عن الرجل : بين عنه . وانما سمي الاعراب اعرابا لتبيينه وايضاحه . ويقال : اعرب عما في ضميرك ، أي ابن . ومن هذا يقال للرجل الذي افصح بالكلام : أعرب . والاعراب الذي هو النحو ، انما هو الابانة عن المعاني بالالفاظ . وأعرب كلامه اذا لم يلحن في الاعراب » .

وقال ابن جني (١) في باب القول على الاعراب : « واصل هذا

(١) الخصائص ، ج ١ ، ص ٣٦ .

كله قولهم « العرب » . وذلك لما يعزى اليها من الفصاحة والاعراب والبيان . واما لفظه فانه مصدر اعربت عن الشيء اذا أوضحت عنه . وفلان معرب عما في نفسه ، أي مبين له وموضح عنه » .

مما سبق نستنتج ان أصل « الاعراب » لغة ، هو الابانة والافصاح ، وان الكلمة انما استعيرت في علم النحو للدلالة على تغير حركات اواخر الكلمات للابانة عن تغير وظائفها في الجملة . ولذا نميل الى الاعتقاد بأن ما قيل عن « الاعراب » من انه طبع في اهل البادية ، وان الاعراب كانوا يعربون كلامهم ، هو من قبيل الاعجاب بفصاحتهم وابانتهم عما في نفوسهم عفو الخاطر ، ودون حاجة الى اعمال الفكر . ولا عبرة البتة بما سيق من روايات من مثل قول الاصمعي : « رأيت اعرابيا ومعه بني له صفير ممسك بفم قربة وقد خاف ان تغلبه القربة فصاح : يا أبت ادرك فاها ، غلبني فوها ، لا طاقة لي بفيها » ، فكما يقول الدكتور تمام حسان : « ان هذا النص الذي نطق به الغلام كما يرويه الاصمعي او من الصق به هذا الخبر ليبدو كأنه منتزع من صفحة من صفحات كتب القواعد تتكلم عن اعراب الاسماء الخمسة » (١) .

اما ان يكون جميع الاعراب يعربون كلامهم بصورة شاملة (بمعنى الاعراب في النحو) الذي يتخاطبون به في شؤون حياتهم ، فأمر لا يقوم عليه الدليل دائما ، خاصة ان علاقة النحاة بأهل البادية ، كما تصورها الكتب ، اقتصرت ، او كادت ، على القول بأنهم سمعوا منهم شعر شعرائهم ، وشيئا من نثر ادبائهم ونوادر ظرفائهم . وهذا كله داخل في باب « المحفوظات » من اللغة الادبية النموذجية (الفصحى) . واذ كان هؤلاء الرواة الاعراب يحفظون تراث آبائهم واجدادهم كما نطق به اصحابه ، اي معرب اواخر الكلمات (ذكرنا آنفا ان الاعراب لصيق بالفصحى وخصيصة من خصائصها) ، فربما يكون من سمعوهم قد توهموا بأنهم يحسنون

---

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية ، ص ٨١ .

الاعراب « بالطبع » ، كما يحسنه النحاة اذا هم « تحفظوا » وكدوا الاذهان والعقول .

واما الدعوى « بفساد سلائق العرب لبعدهم عن مهد لغتهم الاول » فنقول فيها مع الدكتور ابراهيم انيس : اذا نحن سلمنا بأن اللحن كان يعني في الغالب الخطأ الاعرابي ، فلا مناص لنا من ان نعد ظاهرة « الاعراب » من الظواهر التي لا تختصر كل ما تعنيه السليقة اللغوية ، وذلك لان صاحب اللغة الذي يتكلمها بالسليقة يستحيل عليه الخطأ في ظواهر تلك اللغة دون ان يدرك انه اخطأ . ولا يتصور وقوع الخطأ من صاحب السليقة اللغوية في أي ظاهرة من ظواهر لغته : في تركيب اصواتها ، أو في ترتيب كلماتها في جمل مفيدة ، او في صيغها ، او في طريقة النفي والاثبات ، او في طريقة الاستفهام والتعجب ، ونحو ذلك . « وعلى هذا يمكننا ان نتصور ان ظاهرة الاعراب لم تكن ظاهرة سليقية في متناول العرب جميعا كما يقول النحاة ، بل كانت صفة من صفات اللغة النموذجية الادبية ، ولم تكن من معالم الكلام العربي في احاديث الناس ولهجات خطابهم » (١) . او بالاحرى لم تكن لصيقة بأحاديث جميع الناس ، وذلك حتى لا نقع في تعميم متسرع .

وبعد ، فلنستعرض ما سجله الرواة في معرض اللحن في الاعراب ، وهو يتناول في قسم منه الآثار المحفوظة او المكتوبة (اللغة الفصحى) ، وفي قسمه الآخر لغة الحديث والخطاب . ونبدأ بالاولى لأنها تشكل وثيقة تاريخية علمية ، ما دامت قد وصلت الينا بصيغتها المتوارثة ، فنقول بأن أقدم آثار ظاهرة اللحن في الاعراب تتمثل في ما يعرف بالاقواء في الشعر ، وهو حسب تفسير ابن رشيق (٢) « اختلاف اعراب القوافي » .

---

(١) من اسرار اللغة ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .
(٢) العمدة ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

من امثلة الاقواء في الجاهلية بيت النابغة :

زعـم البـــوارح ان رحلتنـــا غـــدا
وبذاك خبرنـــا الغـــراب الاسود (١)

بالرغم من ان قافية القصيدة مخفوضة ، وهي التي مطلعها :

مـــن آل ميـــة رائـــح او مغتـــد
عجـــلان ذا زاد وغـــير مـــزود

ومن امثلته بعد الاسلام قول حسان بن ثابت :

لا بأس بالقوم من طـول ومـــن قصر
جســم البغـــال واحـــلام العصـــافير
كأنهـــم قصـــب جفـــت اســـافلـه
مثقـــب نفخـــت فيـــه الاعـــاصير

وقول الفرزدق في القصيدة التي يمدح بها يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمـــال الشـــام تضربنـــا
بحاصـــب كنديـــف القطـــن منثـــور
علـــى عمائمنـــا يلقـــى وأرحلنـــا
علـــى زواحف تزجى مخهـــا رير (٢)

ومن امثلة اللحن في الاعراب ما رصده العلماء مـــن سقطـــات الشعراء ــ جاهليهم واسلاميهم ــ كالذي قال به القاضي الجرجاني

---

(١) تقول الرواية انه كلفت قينة ان تغني هذا البيت للنابغة وتطيل الضمـــة علـــى الدال فتنبه النابغة الى خطأه وغير الشطر فأصبح على الوجه التالي :
« وبـــذاك تنعـــاب الغـــراب الاسود »

(٢) الزواحف : النوق المتعبة لكثرة مـــا سارت . تزجي : تساق . رير : ذائب . ويقال ان عبدالله بن ابي اسحاق الحضرمي تصدى للفرزدق قائلا : اسأت . انما هو مخها رير (برفع رير) . وكذلك قياس النحو . وان الفرزدق بناء على الحاح الحضرمي اضطر الى تغييره حتى اصبح : « على زواحف نزجيهـــا محاسير » . انظر الخبر في « اخبار النحويين البصريين » ص ٢٧ ، وفي طبقات الزبيدي ، ص ٣٢ .

في مقدمة كتابه « الوساطة بين المتنبي وخصومه » (١) ، من قول امريء القيس :

يـــا راكبـــا بلـــغَ اخـــوانـنـــا
مَـــن كـــان مِـــن كنـــدة أو وائـــل

فنصب « بلغ » (وهو فعل امر)

وقوله :

فاليــوم اشــرب غــير مستحقــب
اثمــا مــن اللــه ولا واغــل (٢)

فسكن « اشرب » (وهو فعل مضارع حقه الرفع)

وقوله :

لهـــا متنتـــان خظـاتـــا كمـــا
اكـــب علـــى ساعديـــه النمـــر (٣)

فاسقط نون المثنى من (خظاتان) دون ان تكون مضافة .

وقول لبيد :

تـرّاك امكنـــة اذا لـــم ارضهـــا
او يرتبط بعض النفوس حمامهـــا

فسكن (يرتبط) مع ان حرف الجزم « لـم » لا عمل له فيه.

وقول طرفة :

قد رفع الفخ فماذا تحذري ؟ (٤)

---

(١) ص ١١٢ وما يليها .

(٢) مستحقب : محتمل . واغل : المقصود بها هنا : مستتر .

(٣) خظاتان : مكتنزتان .

(٤) هو شطر من ثلاثة ابيات من الرجز في خطاب قبرة ، وهي :

يـا لـك مـن قبـرة بمعمر — خـلا لـك الجـو فبيضـي واصفـري
قد رفع الفخ فماذا تحـذري — ونقـري مـا شئـت ان تنقـري
قد ذهب الصياد عنك فابشري — لا بـد يومـا ان تصادي ، فاصبري

(ديوان طرفة ــ طبعة صادر ١٩٦١ ، ص ٤٦) .

فحذف نون المضارع من (تحذري) وهو من الافعال الخمسة لغير ما نصب او جزم .

وقول احدهم :

يـا عجبـا والدهـر جـم عجبـه
مـن عنـزي سبنـي لـم اضربه

فرفع المضارع (اضرب) رغم اداة الجزم « لم » .

ومن آثار اللحن في النثر ، ما روي من انه ورد الى عمر بن الخطاب كتاب اوله : « من ابو موسى الاشعري » ، فكتب عمر لأبي موسى بضرب الكاتب سوطا على ذلك اللحن (١) . وما يروى من ان الباعث على وضع النحو ان ابا الاسود الدؤلي ـ او عليا بن ابي طالب كرم الله وجهه ـ سمع قارئا يقرأ (الآية ٣ من سورة التوبة) : « واذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر ان الله بريء من المشركين ورسوله ... » (بكسر اللام) ، فقال : ما ظننت أمر الناس صار الى هذا ! (٢)

وما يروى من ان الحجاج بن يوسف قال ليحيى بن يعمر : اتجدني ألحن ؟ قال : الامير أفصح من ذاك . قال : عزمت عليك لتخبرني ، وكانوا يعظمون عزائم الامراء . فقال يحيى : نعم ، في كتاب الله . قال : ذاك اشنع له . ففي أي شيء من كتاب الله ؟ قال: قرأت : « قل ان كان آباؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من رسول الله » (٣) فترفع « احب » وهو منصوب (٤) . قال : اذن لا تسمعني ألحن بعدها . فنفاه الى خراسان (٥) .

---

(١) انظر الخبر في « الخصائص » ، ج ٢ ، ص ٨ .
(٢) انظر الخبر في « اخبار النحويين البصريين » ، ص ١٦ . وقد ورد باختلاف يسير في تقديم الرواية في عدة مصادر منها « الخصائص » ، ج ٢ ، ص ٨ .
(٣) سورة التوبة ، الآية ٢٤ .
(٤) منصوب لانه خبر كان في اوائل الآية .
(٥) اخبار النحويين البصريين ، ص ٢٣ .

ومن امثلة اللحن في الاعراب من خلال الكلام المحكي ما روي من ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر على قوم يسيئون الرمي فقرّعهم فقالوا : « انا قوم متعلمين » فأعرض مغضبا وقال : « والله لخطؤكم في لسانكم اشد علي من خطئكم في رميكم » . وما روي من ان ابنة لأبي الاسود قالت له يوما : يا أبت ما احسن السماء (برفع احسن) . قال : أي بنية ، نجومها . قالت : اني لم ارد أي شيء منها احسن ، انما تعجبت من حسنها . قال : اذن فقولي : ما احسن السماء (بنصب احسن) فحينئذ وضع كتابا . ويقال ان ابنته قالت له : يا أبت ما اشد الحر (برفع اشد) ، في يوم شديد الحر ، فقال لها : اذا كانت الصقعاء (أي الشمس من فوقك والرمضاء من تحتك . قالت : انما اردت ان الحر شديد . قال : فقولي اذن : ما اشد الحر (بنصب اشد) (١) . وكذلك ما يروى من ان رجلا جاء الى زياد فقال : اصلح الله الامير ! توفي ابانا وترك بنون . فقال زياد : توفي ابانا وترك بنون ؟ ادع لي ابا الاسود . فقال : ضع للناس الذي كنت نهيتك ان تضع لهم (٢)



والآن لنناقش ظاهرة اللحن في الاعراب . واذا كنا نؤثر البدء بمناقشة هذه الظاهرة على صعيد لغة الخطاب والحديث ، فلأن مناقشتها على صعيد لغة الكتابة ، او اللغة الادبية النموذجية ، أيسر تناولا ، نظرا للصوق ظاهرة الاعراب بها ، ووصول جميع نصوصها شعرا ونثرا معربة بما لا يقبل الشك ، ولأن بحثنا يرتكز في اساسه على هذه « اللغة » وحدها دون اللغة المحكية التي يتطلب البحث فيها دراسة خاصة تقع في نطاق اختصاص «علم اللهجات» .

---

(١) اخبار النحويين البصريين ، ص ١٩ . والخبر نفسه برواية قريبة واختلاف طفيف ، في طبقات الزبيدي ، ص ٢١ .
(٢) طبقات الزبيدي ، ص ٢٢ .

وقبل البحث في ظاهرة اللحن في « الاعراب » على مستوى اللغة المحكية ، لا بد من السؤال عما اذا كان هذا الاعراب (بوصفه التزام اواخر الكلمات بحركات تتغير بتغير وظائفها في الجملة) ملتزما قديما في اللهجات العربية القديمة. الحق ان البحث في هذه القضية على جانب كبير من الخطورة ، لأننا لا نملك نصوصا يمكن الاطمئنان الى نسبتها للهجة من اللهجات التي كانت كل قبيلة من قبائل العرب تتداولها فيما بينها للتواصل وتصريف شؤون الحياة . ثم لأن الباحث لا يكاد يجد في الدراسات التي خلفها لنا علماء اللغة بصدد الفوارق اللهجية (او ما تعارفوا على تسميته باللغات) ما يشف عن حقيقة علمية . فهو لا يكاد يدري عند مطالعتها هل يحكم بأن العرب كانوا في جاهليتهم ، وقسم من اسلامهم ، يستخدمون في مخاطباتهم لغة مقاربة في خصائصها (ومنها خصيصة الاعراب) للغة النموذجية الادبية ، مع بعض التباين في استخدام المفردات والصيغ، ام أنهم — على اختلاف لهجاتهم — لم يكونوا يعربون كلامهم بالشكل الذي افترضه اللغويون والنحاة على امتداد تاريخ النحو .

فالواقع ان معظم الدراسات التي قدمها لغويونا حول ما يسمى « لغات العرب » اقتصر ، او كاد ، على مجالي الاصوات والصيغ ، مع اشارات قليلة جدا في مجال الاعراب لا تشفي غليلا . فقد حدثونا في مجال الاصوات عن :

— عنعنة تميم ، وهي قلب الهمزة التي في اول الكلمة عينا ، كنطقهم « أن » « عن » .

— وكشكشة اسد ، وهي قلب كاف المخاطبة شينا ، كقولهم يا سعاد من أبوش ؟ بدلا من « من ابوك ؟ » .

— وتلتلة بهراء ، وهي النطق بحرف المضارعة مكسورا بدلا من فتحه ، كما في نستعين (بكسر النون الاولى) .

— وغير ذلك من عجرفية قيس وكسكسة ربيعة وتسهيل الهمز عند قريش ... (١) .

---

(١) الصاحبي ، ص ٤٨ وما بعدها .

وحدثونا في مجال الصيغ عن :

ــ التقديم والتأخير ، كقولهم « صاعقة » و « صاقعة » .

ــ والحذف والاثبات، كقولهم « استحييت » و « استحيت ».

ــ والحرف الصحيح يبدل حرفا معتلا ، كقولهم « أما » و « أيما » .

ــ والاختلاف في صور الجمع، كقولهم «أسرى» و «أسارى».

اما في المجال النحوي فقد حدثونا عن :

ــ الاختلاف في التذكير والتأنيث ، كقولهم « هذه البقر » و « هذا البقر » ، و « هذه النخل » و « هذا النخل » .

ــ والاختلاف في الاعراب ، كقولهم « ما زيد قائما » و « ما زيد قائم » (١) « وان هذين » ، و « ان هذان » ، و « مررت بأخويك » و « مررت بأخواك » (٢) الخ . . .

وما دمنا لا نملك دليلا ملموسا على استمرار الاعراب وشموله في لهجات الخطاب والحديث ، فانه لا يبقى امامنا سوى اللجوء الى الحدس والتخمين استنادا الى نظرية « الجهد الاقل » وما تقرره من ميل الانسان الى السهولة واليسر في تصريف شؤون حياته ، ومنها ولا شك استخدامه اللغة وسيلة للتواصل الاجتماعي . فاللغة بمفهومها الادبي (اللغة الادبية النموذجية ، او لغة الكتابة) يجب ان يواكبها قدر كبير من الثقافة والمعرفة بخصائص هذه اللغة ومميزاتها . وليست اللهجة (او لغة الحديث) كذلك ، لأنها تتحصل للناطق بها عن طريق الاتصال بالمجتمع المحيط به دونما حاجة الى قدر من ثقافة او معرفة بدقائق اللغة . اي ان اللهجة موروث اجتماعي يمكن ان ينعت بأنه « سليقة » في وارثه ، بعكس

---

(١) اشارة الى «ما» الحجازية التي تعمل عمل «ليس» في نصب خبرها ، و «ما» التميمة التي هي مجرد حرف نفي يبقى ما بعدها مبتدأ وخبرا .

(٢) لغتان لبني الحارث بن كعب كما في « الصاحبي » ص ٤٨ ، و «الخصائص» ج ٢ ، ص ١٦ .

اللغة الادبية التي تتطلب من المرء اتصالا ــ لا بمن حواليه فقط ــ وانما كذلك بتراثه الادبي والفني . ومن ثم يحتاج مع هذه اللغة الادبية الى قدر كبير من المران لكي يمكنه استخدامها ، اذا تطلب منه الموقف ذلك ، بجميع خصائصها ومنها ــ وربما قبل كل شيء ــ « الاعراب » .

وقد يكون ما نقل الينا من اختلاف اللهجات في الاعراب صحيحا على مستوى اللغة النموذجية (لا ننس ان اعمال « ما » عمل « ليس » وعدم اعمالها ، معترف بهما من قبل النحاة وقد دخلا في تراثنا النحوي ، ولا مجال بعد لانكارهما) ، لكنه في رأينا اختلاف قد حدث في حين من الدهر غلب فيه على بعض ابناء القبيلة مفهوم خاص لتركيب من تراكيب اللغة ، كأن يكون استقر في روع الحجازيين ان تكون « ما » النافية بمعنى «ليس» فأجروها مجراها، بينما بقي التميميون على اعتقادهم بأنها مجرد حرف نفي لا يؤثر في تغيير تركيب الجملة من الناحية الميكانيكية ، وان غيَّرها من ناحية الصيغة الدلالية . وقد « يكون ان العرب كانت قديما تقول : مررت بأخويك واخواك جميعا ، الا ان الياء كانت أقيس للفرق ، فكثر استعمالها ، واقام الآخرون على الالف . او ان يكون الاصل قبله الياء في الجر والنصب ، ثم قلبت للفتحة قبلها الفا في لغة بلحرث بن كعب » (١) . ونضيف نحن بأنه ربما سمع بعض العرب ينطقون بالياء والحرف الذي قبلها كما تنطق الالف الممالة ، فاستقر في روع السامع انهم يقولون « ان هذان » او « مررت بأخواك » .

لكننا على كل حال لا يمكننا ان نتخذ من هذه الاشارات العابرة دليلا على وجود ظاهرة الاعراب في لغة الحديث والخطاب . فالنطق بالعربية « معربة » يحتاج الى قدر كبير من التركيز الذهني لملاحقة وظائف الكلمات في العبارة ، وايفائها حقها من الحركات رفعا ونصبا وجرا وجزما ، ثم هو يستغرق وقتا اطول في النطق . وهذا كله يتعب الناطق والسامع ، وقد يفوّت عليهما كثيرا من فرص ملاحقة

---

(١) الخصائص ، ج ٢ ، ص ١٦ .

الموضوع الذي هو مدار حوارهما . « وهل يتصور مثلا ان امرأة جاهلية كانت ترقص ابنها على ايقاع رجز راقص ، تفكر في الالتزام بما تفرضه الفصحى من صيغ واساليب ، وبما يسودها من ظواهر وخصائص ؟ » (١) .

اغلب الظن ان ما يمكن ان يتوهمه المطالع لروايات اللغويين والنحاة ، من ان العرب كانوا يتصرفون في اعراب كلامهم تصرفهم في اعراب لغتهم الادبية الفصحى ، مرده الى دراسة اولئك اللغويين والنحاة للغة من خلال نماذج « فصيحة » كان اساتذتهم الاول من اعراب البادية يروونها لهم « مشافهة » ، بعد ان حفظوها باعرابها عن الآباء والاجداد ، وان هؤلاء الاعراب الرواة كانوا متمرسين بهذه اللغة الفصحى لطول ما عانوها ، فكان طبيعيا ان يستخدموها في مواقفهم مع اللغويين والنحاة ، فأكبر فيهم هؤلاء فصاحتهم وبيانهم الى درجة انهم غالوا في اكبارهم ، فبلغوا به حد القول بأن «الاعراب» من طباع اهل البادية . ولم يقصروه — ويا للاسف — على هذا الفريق من « المثقفين » من الاعراب الذين توافر فيهم ما يتوافر ، في كل عصر من العصور ، في امثالهم من معلمي العربية والمشتغلين بها وبآدابها من طلاقة وضبط وعناية . ولنا دليل على ان الاعراب كانوا يتأنقون في رواياتهم ونوادرهم في ما قاله الجاحظ (٢) : « ومتى سمعت بنادرة من كلام الاعراب فأياك وان تحكيها الا مع اعرابها ومخارج الفاظها فانك ان غيرتها بأن تلحن في اعرابها ، واخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فاياك ان تستعمل فيها الاعراب او ان تتخير لها لفظا حسنا او ان تجعل لها من فيك مخرجا سريا . »

وهذا كله قد يدعونا الى الظن ، ان الفصحى لم تكن سليقة عند العرب جميعا ، خاصة بعد انتشار الاسلام خارج الجزيرة

---

(١) الدكتور علي ابو المكارم ، الظواهر اللغوية في التراث النحوي ، ص ٤٦ .
(٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١١١ .

العربية ، وانما كان اتقانهم لها وممارستهم اياها يتفاوتان بتفاوت ثقافتهم الادبية . واذا كان بعضهم قد بلغ من اتقانها حدا كبيرا ، فانه لم يكن يستعملها بالضرورة الا في بعض المواقف التي تتطلب منه استعمالها كالخطابة والمناظرة ، وغير ذلك من المواقف الادبية . اما اذا خلا الى اهله وعشيرته فانه كان يعود الى لهجته الضيقة ، لأنها اقرب متناولا وايسر اتصالا بهم . ومن ذلك ما ينسب الـى النبي عليه الصلاة والسلام من انه كان يستخدم لهجة قريش اذا خلا بأصحابه وخاصته ، فاذا زارته وفود من القبائل الاخرى لجأ الى استعمال لهجاتها ، واختار مـن كل لهجة افصحها وابينها . فقد روي ان رجلا قال : « يا رسول الله ما افصحك ! فما رأينا الذي هو اعرب منك . قال : حق لي ، فانما انزل علي القرآن بلسان عربي مبين . وقال الخطابي : اعلم ان الله لما وضع رسوله صلى الله عليه وسلم موضع البلاغ من وحيه ، ونصبه منصب البيان لدينه ، اختار له من اللغات اعربها ، ومن الالسن افصحها وابينها ، ثم أمده بجوامع الكلم » (١) . ومن ذلك ايضا ما ينسب الى قريش من انها كانت اذا أتت الوفود من العرب للحج ، تخيرت من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم واصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيرت من تلك اللغات الـى سليقتها التي طبعت عليها ، فصارت بذلك افصح العرب (٢) .

زد على ذلك انه لو سلمنا جدلا بأن العرب كانوا قبل الفتوح يتكلمون لغة فصحى في مجال تواصلهم كل يوم ، فانه لا يمكن بحال من الاحوال ان تفسد لغتهم هذه بين ليلة وضحاها نتيجة اتصالهم بالاقوام الاعجمية، وبعدهم عن مهد لغتهم الاول ، الى درجة يستغلق معها على الناس ان يفهموا ما قاله عيسى بن عمر الثقفي النحوي (المتوفى عـام ١٤٩ هـ) ـ وهـو مـن اوائل النحاة لانه مـن تلاميذ ابي الاسود ـ الذي كان ضيق النفس ، فوقع يوما وهو في السوق ، فدار الناس حوله يقولون : مصروع ، مصروع ، وهم بين قارىء

(١) المزهر ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .
(٢) نفسه ، ص ٢١٠ .

ومعوذ من الجان ، فلما افاق من غشيته نظر الى ازدحامهم فقال لهم — وكان يتقعر في كلامه — مالي اراكم تكأكأتم علي تكأكؤكم على ذي جنة ، افرنقعوا . فسمع احدهم يقول : ان جنيّه هذا يتكلم بالهندية (١) .

حتى في المواقف التي تدعو الى استخدام الفصحى ، وجد من كان لا يقيم اعرابا الا اذا خشي لبسا ، كما جاء في ترجمة احد كبار النحاة الكوفيين ، وهو ثعلب (المتوفى عام ٢٩١) . فقد جاء في ترجمته (٢) انه كان لا يتكلف اقامة الاعراب في كلامه اذا لم يخش لبسا في العبارة . وذكر ذلك لابراهيم الحربي فقال : أيش يكون اذا لحن في كلامه ! كان هشام النحوي (٣) يلحن في كلامه ، وكان ابو هريرة يكلم صبيانه بالنبطية (٤) .

ولعل من الادلة على وجود لهجة خاصة بالحديث اليومي الى جانب اللغة الادبية النموذجية في كل عصر ، ما قرره ابن خلدون (٥) من ان « لغات اهل الامصار انما تكون بلسان الامة او الجيل الغالبين عليها او المختطين لها » . وانظر اليه يقول (٦) : « ولا تلتفتن الى خرفشة النحاة ، اهل صناعة الاعراب ، القاصرة مداركهم عن التحقيق ، حيث يزعمون ان البلاغة لهذا العهد (عهد المؤرخ طبعا) ذهبت ، وان اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع في اواخر الكلم من فساد الاعراب الذي يتدارسون قوانينه .... والا فنحن نجد اليوم الكثير من الفاظ العرب لم تزل موضوعاتها الاولى . والتعبير عن المقاصد ، والتعاون فيه ، بتفاوت الابانة ، موجود في كلامهم لهذا العهد ... ولم يفقد من احوال اللسان المدون الا حركات الاعراب

(١) القفطي انباه الرواه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ .
(٢) انباه الرواه ، ج ١ ، ص ١٤٠ .
(٣) هو هشام بن معاوية الضرير ، نحوي كوفي توفي عام ٢٩٠ هـ .
(٤) نسبة الى النبط ، وهم قوم ينزلون بالبطائح بين العراقيين .
(٥) المقدمة ، ص ٣٧٩ .
(٦) نفسه ، ص ٥٥٦ .

في اواخر الكلم » . ويضيف قائلا (١) : « ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد ، واستقرينا احكامه ، نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالاتها بأمور اخرى موجودة فيه تكون بها قوانين تخصها ، ولعلها تكون في اواخره على غير المنهاج الاول في لغة مضر » .

وبعد ، فماذا نستنتج من كل ما اوردنا اعلاه ؟

اولا ـ انه ما دام هناك اختلاف بين القبائل في مجال الاصوات واستبدال بعض الحروف بأخرى (مثال ذلك على سبيل التذكير قلب الهمزة في اول الكلمة عينا) ، فلماذا يعتبر قلب الحاء هاء على لسان صهيب ـ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لحنا ؟

الجواب على ذلك هو ان تبديل الحروف بغيرها من « عربي » يعد « لغة » (أي لهجة) لانه لا سبيل الى اتهام ابن اللغة بالخطأ ، ولا سيما اذا نظر الى اللغة على انها « سليقة » فيه . اما اذا حدث ان كان ذلك « التبديل » من غير العربي ـ حتى وان استحال عليه التلفظ بالحرف الاصلي لعدم وجود مثيله في لغته الام ـ فانه يعد لحنا . ذلك ان « العربية نشأت قبل الاسلام في بيئة امية فتلقاها ابناؤها عن طريق الآذان وحدها . وادى هذا في نهاية الامر الى ان اصبحت اسماعهم مرهفة تنفر من الاصوات التي تنبو في السمع، ومن تنافر الحروف مجتمعة ، فتخلصت لغتهم من الكلمات التي لا انسجام في اصواتها ، واصبحت لغة موسيقية الالفاظ والعبارات. ولذلك لم يكن العربي يمل سماع الكلمات من لغته وترديدها . وكان يعد كل ما سوى العربية لكنة وعجمة » (٢) .

ثانيا ـ ان ما جاء في كتب اللغة والنحو عن اختلاف اللهجات في « الاعراب » من مثل اعمال « ما » عمل « ليس » او عدم اعمالها ، لا يشكل شاهدا على وجود ظاهرة الاعراب في لغة الحديث اليومي ،

---

(١) نفسه ، ص ٥٥٧ .
(٢) ابراهيم انيس ، اللغة بين القومية والعالمية ، ص ١٨٨ .

ما دامت الصيغتان معترفا بهما جميعا في قوانين النحو والاعراب الخاصة باللغة الادبية النموذجية . وقل الشيء نفسه بالنسبة الى ميل الحجازيين الى نصب خبر ليس المحصور بالا في مثل قولهم (ليس الطيب الا المسك) وميل التميميين الى رفعه .

ثالثا ـ ان ما روي من مثل « توفي ابانا وترك بنون » تظهر فيه معالم « الروائية » صارخة ولا يمكن بالتالي الاطمئنان اليه دليلا على نهوض القوم لوضع النحو .

رابعا ـ ان « الفصحى » لم تكن مستعملة دائما ـ كما قد يخيل الى من يقرأ كتب الاخبار ـ حتى في مجالس الخاصة ، بل الذي كان مستعملا هو تلك اللغة المتوائمة مع الطبع ، والتي لا يكون فيها اثر للتكلف والتحفظ . فقد ورد في ترجمة الفراء (المتوفى عام ٢٠٧ هـ) انه دخل على هارون الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه مرات ، فقال الرشيد للفراء : اتلحن ؟ قال : يا امير المؤمنين ان طباع اهل البدو الاعراب ، وطباع اهل الحضر اللحن ، فاذا تحفظت لم الحن ، واذا رجعت الى الطبع لحنت، فاستحسن الرشيد قوله (١).

خامسا ـ يترجح لدى الباحث ان النحاة انفسهم ـ باستثناء من عرف منهم « بالتقعر » ـ كانوا يعمدون ـ شأنهم شأن معلمي العربية اليوم ـ الى استخدام « الفصحى » في القاء دروسهم ، فاذا انصرفوا الى مجالسهم الخاصة ، اخلدوا الى لغة لا يتكلفون معها اقامة الاعراب ، بل انهم ربما كانوا احيانا لا يتكلفونه ابدا ، اذا هم امنوا اللبس في العبارة (ثعلب مثلا) .

سادسا ـ انه كان للعامة لهجتهم الخاصة ، بدليل ما كان من امر الناس مع عيسى بن عمر ، وتوهمهم انه كان ينطق «بالهندية» ، وما جاء على لسان الجاحظ من وجود لغة خاصة سماها لغة « المولدين والبلديين » . ولا يمكن ان تكون هذه اللغة قد نبتت « فجأة » ، بل هي ولا شك لغة الآباء والاجداد تطورت مع الايام .

---

(١) طبقات الزبيري ، ص ١٣١ .

ولا بد ان تطورها سابق في الزمن على الحقبة التي فكر فيها الرواد الاوائل بوضع النحو . يؤيد ذلك كله ملاحظة ابن خلدون بأن الفاظ العرب لم يزل الكثير منها على ما وضع في اصل اللغة ، وان « اهل الامصار » ما زالوا قادرين على التعبير عن مقاصدهم بتفاوت في الابانة ، وان ما فقد من كلامهم المحكي هو حركات الاعراب الخاصة بـ « اللسان المدون » ، أي اللغة المكتوبة ، وهي النموذجية الفصحى .

بعد هذه الملاحظات نرى انفسنا مدفوعين الى القول بأن ما ورد في اسباب وضع النحو من روايات تدور في فلك « لغة التخاطب والحديث » ، لا يقوم دليلا على اندفاع الغيارى على العربية في سبيل وضع « ما به يقوّمون السنة الناس » . فلا بد انهم كانوا يدركون ــ ونحن لا يمكن ان نرتاب في حسن تقديرهم وتفكيرهم ــ ان الناس لم يكونوا بحاجة الى « الاعراب » ولا الى « القواعد » في تصريف شؤون حياتهم رغم فشو اللحن على السنتهم . فقد جاء في انباه الرواه (١) انه « مر ابو عمرو بن العلاء بالبصرة ، فاذا اعدال مطروحة مكتوب عليها : « لأبو فلان » . فقال ابو عمرو : يا رب ، يلحنون ويرزقون ! » ولا ننس ان ابا عمرو من رواد اللغة والنحو الاوائل .

ومهما يكن من أمر ، وعلى افتراض وجود ظاهرة الاعراب في اللهجات المحكية ، فانه « لا يسعنا ان ننكر ان قواعد الاعراب لم يكن لها قديما في لهجات الحديث ما كان لها في لغة الادب من شأن ، وذلك ان طائفة كبيرة من هذه القواعد لا تظهر وظائفها وتمس الحاجة اليها الا في مسائل التفكير المنظم المسلسل ، والمعاني المرتبة الدقيقة التي يندر ان تعالج في لغات التخاطب اليومي » (٢) .

ويطيب لنا قبل الانتقال الى معالجة ظاهرة اللحن في الاعراب على مستوى اللغة الادبية النموذجية ، ان نتوقف عند واحدة من الروايات التي وصلت الينا عن البواعث على وضع النحو ، وهي

(١) ج ٢ ، ص ٣١٩ .
(٢) فقه اللغة ، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ .

قصة بنت ابي الاسود الدؤلي وتعجبها من « حسن السماء » (او من «شدة الحر») ، فنقول : اننا لو سلمنا جدلا بأن اهل بيت الدؤلي كانوا يقيمون « الاعراب » في حديثهم اليومي فيما بينهم ، فانه لا يعقل ان « تلحن » الابنة ، فلا تميز بين اسلوبين مختلفين من اساليب الكلام ، عنينا الاستفهام والتعجب ، ولا سيما ان اباها كان، بشهادة جميع الرواة ، من افصح الناس وادراهم بدقائق اللغة العربية . فمن الثابت علميا ان اللغة تنتقل تلقائيا ، وعن طريق الارث الاجتماعي ، من الآباء الى الابناء الذين يحتذونهم ويقتدون بهم ، ولا يمكن بالتالي ان تكون بنت ابي الاسود لم تكتسب من فصاحة ابيها مقدارا يؤهلها للتمييز بين التعجب من حسن السماء وبين الاستفهام عن هذا الحسن !

اما اذا لم يكن ابو الاسود واهل بيته يتخاطبون بلغة معربة ـ وهذا ما نرجحه لأنه اقرب الى منطق الامور ـ فان الابنة لا تعدم وسيلة ، عن طريق نبرة الصوت ولهجة الخطاب ، لاظهار قصدها للتعجب من حسن السماء او شدة الحر . فها نحن اليوم في جميع اقطارنا العربية ، وعلى بعد الشقة في الزمن بيننا وبينهم ، نرى انه حتى اطفالنا يميزون بما لا يدع أدنى لبس لدى المخاطب ، بين اسلوبي التعجب والاستفهام . ولقد رأينا مثلا ان كلمة « ايش » ، وهي منحوتة من كلمتي (أي) و (شيء) ، دخلت لغة الكتابة في عصر التدوين والتصنيف ، فهل يعقل الا تكون مستعملة في لغة الحديث ايام ابي الاسود ، وان تجهل الفتاة استعمالها لو انها ارادت الاستفهام عن احسن ما في السماء ، لا التعجب من حسنها ؟ ثم أليست صيغة « ما افعل » الفصيحة مقصورة في الكلام المحكي على التعجب وحده ؟ الا ترى العرب يستعملونها لهذا الفرض في شتى اقطارهم ، مع تفاوت في نطق المتعجب منه (خاصة اذا كان ضميرا متصلا) ، كأن يقال في لبنان مثلا : « ما اكبرو ! » و « وما احسن شغلو ! » و « ما الطف حديثها ! » (او حديثا) الخ . . .

ولعل خير دليل على « روائية » تلك القصة ، هو ما انضاف اليها على مر العصور من ان أبا الاسود بعدما سمع كلام ابنته « عمل

باب التعجب ، وباب الفاعل والمفعول به ، وغيرها من الابواب (١) »، وانه « حينئذ وضع كتابا » (٢) . فواضح ما في قولهم « عمل باب التعجب » من افتعال وتعمل ، اذ اقحموا باب التعجب الى جانب باب الفاعل والمفعول ، بل قدموه عليهما ، مع ان المنطق يقضي ان يكون النحو قد تناول في بداية عهده ابسط الامور وايسر المسائل ، ولا نظن ان التعجب من بينها .

* * *

ننتقل بعد هذا الى ظاهرة اللحن في الاعراب على مستوى الفصحى المكتوبة (او المحفوظة) وقد سبقت الاشارة الى انه لا مجال للشك في وجود تلك الظاهرة فيها ، لدليل ملازمة « الاعراب » لأقدم النصوص الادبية شعرا ونثرا ، ولأن القرآن الكريم الذي يعتبر بلا ريب اعظم النصوص النثرية فصاحة واصفاها اسلوبا وبيانا قد « حافظ على الحركات المختلفة التي تنتج عن الالتزام بهذه الظاهرة (ظاهرة التصرف الاعرابي) ، وفيه نصوص كثيرة لا سبيل الى فهمها الا بالالتزام بهذه الحركات . ومن ذلك مثلا قول الله تعالى في سورة فاطر : « انما يخشى الله من عباده العلماء » (بنصب لفظ الجلالة مفعولا به مقدما ورفع العلماء فاعلا مؤخرا) ، وفي سورة التوبة : « ... ان الله بريء من المشركين ورسوله » (برفع كلمة رسول على الابتداء) ، وفي سورة البقرة : « واذ ابتلى ابراهيم ربه » (بنصب ابراهيم مفعولا به مقدما ورفع رب فاعلا مؤخرا » ، وفي سورة النساء : « واذا حضر القسمة اولو القربى » (بنصب القسمة مفعولا به مقدما) . فمثل مواقع الكلمات في هذه الآيات لا يمكن ان يكون الا في لغة لا يزال الاعراب فيها حيا صحيحا . يضاف الى ذلك شهادة القرآن نفسه في مثل الآية ١٠٣ من سورة النمل : « وهذا لسان عربي مبين » (٣) .

---

(١) طبقات الزبيري ، ص ٢١ .
(٢) انباه الرواه ، ج ١ ، ص ١٦ .
(٣) الظواهر اللغوية ، ص ٣٩ ــ ٤٠ .

وبمراجعة ما روي لنا في صدد ظاهرة اللحن في الاعراب على مستوى اللغة الفصحى ، نسجل الملاحظات التالية :

١ ـ اذا صحت الرواية بأن كاتب الاشعري كتب الى عمر بن الخطاب « من ابو موسى » ـ رغم انه لم يمض وقت طويل على ابتعاد الكاتب عن مهد لغته وفصاحته ، كما يحلو للرواة ان يرددوا في معرض تعليلهم لاسباب فشو اللحن ـ فانه لا تفسير لهذا « الخطأ » الا ان يكون الكاتب قد ارتكبه بسلطان من لغة الحديث التي يستعملها في علاقاته اليومية ، والتي تقتصر فيها الاسماء الخمسة (او الستة) على التزام صورة واحدة رفعا ونصبا وجرا كما هي الحال اليوم في معظم اللهجات العامية الدارجة في الاقطار العربية . وعلى اساس هذا التفسير يكون اللحن الذي وقع فيه كاتب الاشعري دليلا على وجود نوعين مختلفين من الكلام ، قبل التفكير في وضع النحو بزمن غير قصير . ثم الا يخطر للمرء ان يتساءل : ترى ما الفرق بين هذه الرواية وتلك التي قيل فيها ان ابا عمرو بن العلاء مر بسوق البصرة بأعدال مكتوب عليها « لأبو فلان » ؟

٢ ـ اذا صحت الرواية عن « لحن » الحجاج بن يوسف في احدى الآيات القرآنية ، فان ذلك يسلمنا الى نتيجتين هامتين :

الاولى ـ ان اللحن لم يكن مقصورا على العامة وحدهم ، بل كان يقع فيه من يعدون من امراء الفصاحة والبيان . وقد نسبوا الى الحجاج لحنا آخر ، وهو انه كان يقرأ « انا من المجرمون منتقمون » (١) . ونسبوا الى الحسن البصري ـ وهو لا يقل فصاحة عن الحجاج ، رغم كونه من طبقة الموالي ـ انه قرأ « ص ، والقرآن » (برفع القرآن رغم ان الواو للقسم) ، وقرأ « وما تنزلت به الشياطون » (٢) ، (كأنما الشياطين جمع مذكر سالم) . ونسبوا الى ابي حنيفة انه قيل له : « ما تقول في رجل اخذ صخرة فضرب

(١) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢١٨ .
(٢) نفسه ، ص ٢١٩ .

بها راس رجل فقتله اتقيده به ؟ قال : لا ، ولو ضرب راسه بأبا قبيس » (١) .

الثانية ــ ان اقامة الاعراب عملية تتطلب كثيرا من المران والمراس ، ولا تتأتى الا بكد الذهن واعمال العقل ، فهي لا يعقل ان تتم للعامة من الناس ــ حتى الاعراب انفسهم في العصور المتأخرة ــ في لغة الحديث اليومي . فيكفي لذلك ان نتصور ما يحتاجه المرء من جهد وكد لملاحقة خبر كان «احب» في الآية التي لحن فيها الحجاج، الواقع بعد حشد كبير من الكلمات تفصله عن كان واسمها، ولا سيما اذا لم يكن قد حفظ اعراب الكلمة عن طريق التلقين واعتمد على القاعدة النحوية وحدها .

٣ ــ قول الحجاج « ذلك اشنع له » بعد ان اخبره يحيى بن يعمر عن لحنه في الآية القرآنية ، وتصرفه في نفيه كيلا يسمعه يلحن بعدها ، وكيلا يتيح له فرصة نشر الخبر بين سكان الولاية ، كل ذلك يدل دلالة صريحة على انه ، اذا كان من المعقول التسامح في اللحن يقع في كلام من كلام البشر ، فان اللحن في كلام الله عز وجل كبيرة من الكبائر . ولعل هذا الحرص على ان يؤدى كلامه تعالى اداء يحافظ على قدسية النص ، كان الدافع الاول الى وضع النحو ، والباعث الحقيقي عليه . واذا كان الحجاج ، رغم كونه احد اقطاب الفصاحة والبلاغة ، قد لحن في بعض آيات القرآن الكريم ، فلا غرو ان يقع غيره من الناس في اللحن ، وربما في آيات يؤدي معها الخطأ الى ما يمكن اعتباره « كفرا » او على الاقل « خطيئة » ، في مثل ما يروى عن سابق الاعمى الذي قرأ « الخالق الباريء المصور » (٢) (بفتح الواو المشددة ، اي بصيغة المفعول ، بدلا من كسرها ، اي بصيغة الفاعل) ، او في مثل جهر الاعرابي بالتبرؤ من رسول الله اذا كان الله بريئا منه ، حين سمع القاريء يقرأ « ... ان الله بريء من المشركين ورسوله » (بكسر اللام) . واذا

---

(١) نفسه ، ص ٢١٢ . وابو قبيس جبل مشرف على مكة .
(٢) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

كان « اللحن » قديم العهد في تاريخ العربية (لا ننس مـا يروى عن سماع لحون منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام) ، وبخاصة في ظاهرة التصرف الاعرابي ، فان الاحساس بخطورته اصبح جزءا من قضية اكبر واشمل ، وهي « المشكلة اللغوية » التي فرضت نفسها على حياة المسلمين وتفكيرهم ، اذ لم تعد اللغة مجرد اداة من ادوات الاتصال الاجتماعي ، بل اصبحت ، فوق ذلك ، وأهم منه ، لغة النص الديني المقدس ، ومحور العقيدة الجديدة كلها (١) .

وقد يقول قائل انه اذا كان الباعث الاول والحقيقي على وضع النحو هـو الحرص على صون النص الديني من شوائب اللحن ، فقد كان بالامكان معالجة المعضلة عن طريق التلقين الصحيح يقوم به نفر من المؤدبين والقراء ــ وقد عرف التاريخ العربي امثال هؤلاء في مختلف العواصم العربية التي كانت قائمة آنذاك ــ دونما حاجة الى التعرض لقواعد الاعراب . فنحن نرى اليوم مثلا عامة المسلمين يؤدون آيات الكتاب اداء فصيحا ، غالبا ما يكون بعيدا عـن اللحن في الاعراب ، دون ان يكونوا على شيء من الدراية بالقواعد ، لمجرد انهم لقنوه تلقينا صحيحا منذ نعومة الاظفار . وجوابنا ان هذا القول حق ، لولا ان يكون اولئك القراء والمؤدبون قد واجهوا اسئلة مـن بعض طلبتهم ــ ولا سيما من كان منهم غريبا عن اللغة العربية ــ عن ظواهر معينة ، وطالبوهم بتعليلها ، فكان الاساتذة يضطرون الـى الاجابة عليها بما يتيسر لهم ، او بما يقدرون انه الصواب والجواب الشافي ، فكان من نتيجة ذلك ان نضج مع الايام شعور بالحاجة الى تقنين ما كانوا يجيبون وتنظيم معطياته ، وأدى كـل ذلك الـى ظهور طلائع النحو . ولا بد من الاشارة الى ان معظم تلاميذ ابـي الاسود الدؤلي ــ وهو من هو في قراءة الذكر الحكيم والقيام بأعباء تلقين العربية ــ كانوا يتحدرون من أصول غير عربية كمـا سنرى عند الترجمة لهم .

وقد شجع المشتغلين بقضايا اللغة على المضي في ابحاثهم

---

(١) الظواهر اللغوية ، ص ٦٠ .

ما لمسوه من اقبال الاعاجم على العربية ، لا لأنها لغة الدين الذي دخلوا فيه افواجا وحسب ، بل لاثبات مكانتهم الى جانب ابناء اللغة الاصليين ، بعد ان لمسوا انهم لا يمكن ان يصلوا الى مـا يصل اليه العربي من رتب الا باتقان اللسان العربي ، ولان الامم المغلوبة تقتدي عادة بالغالب في كل ما يخصه ، اذ ان « النفس ابدا تعتقد الكمال في من غلبها » (١) .

واذا كان ابناء اللغة انفسهم لا يشعرون بالحاجة الماسة الى تعلم قواعد لغتهم لانها تجري على السنتهم بصورة عفوية عن طريق الارث الاجتماعي ، فان دراسة هذه القواعد يسهل ولا شك على غير ابناء اللغة تعلمها واتقانها . وقد قال ابن جني (٢) في « باب القول على النحو » : هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه مـن اعراب وغيره ، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والاضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ، ليلحق من ليس من اهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة ، فينطق بها ، وان لم يكن منهم . وان شذ بعضهم عنها رد به اليها » . وعلى هذا الاساس بدأت ولا شك الانظار والملاحظات اللغوية تأخذ طريقها الى التدوين ، ثـم راحت تتعمق وتتسع فشملت الخلافات اللهجية للقبائل العربية المختلفة ، ونفذت الى حقـل المقارنة بـين لغـة القرآن الكريم ولغة التراث الجاهلي ، شعره ونثره ، واخذ علم النحو بالنماء والتفرع والتركب بعد ان بدأ بسيطا ساذجا وعلى شيء من استحياء .

ويطيب لبعض الباحثين في نشأة النحو ان يذكروا الى جانب الدافع الديني الى وضعه ، دوافع بعضها قومي عربي وبعضها الآخر اجتماعي . فأما الدافع القومي « فيرجع الى ان العرب يعتزون بلغتهم اعتزازا شديدا ، وهو اعتزاز جعلهم يخشون عليها مـن الفساد حين امتزجوا بالاعاجم ، مما جعلهم يحرصون على رسـم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٤٧ .
(٢) الخصائص ، ج ١ ، ص ٣٤ .

اوضاعها خوفا عليها من الفناء والذوبان في اللغات الاعجمية » (١) . واما البواعث الاجتماعية فتتمثل في بعد العرب عن البادية ، مهد لغتهم الاول ، وفساد سلائقهم بعد اختلاطهم بالاعاجم ، وتأثرهم بلغاتهم ، ثم في نشوء اجيال من العرب من امهات غير عربيات وتأثرهم بهن وفشو اللحن على السنتهم تبعا لذلك .

فأما ان العرب يعتزون بلغتهم فأمر لا سبيل الى انكاره بحال من الاحوال ، يشهد بذلك انه لا يكاد يخلو كتاب من كتب اللغة او النحو من اشارة الى ان « الفصاحة » وقف على العرب من دون سائر خلق الله ، وان اللسان العربي « اشرف » الالسن . لكننا نميل الى الاعتقاد بأنه اذا كان اعتداد العرب بفصاحتهم مرده الى شعور قومي محض ، لان دعوى الفصاحة لا تخرج عن كونها مظهرا من مظاهر رد الفعل العربي على النزعة الشعوبية التي ذر قرنها منذ قيام الدولة الاموية ، والتي لا تعدو ان تكون صراعا لغويا بين العربية والفارسية (٢) ، فان القول بـ « شرف » اللسان العربي مرده الى شعور ديني صرف ، لأن هذا اللسان المبين هو الذي نزل به القرآن الكريم . ولنا على ما نقول اكثر من دليل في اجماع اهل اللغة والنحو ، سواء من كان منهم عربيا خالصا ، ومن ينتسب الى العروبة بالولاء ، على الجزم بشرف اللغة العربية . واذا كان واضع النحو الاول عربيا خالصا ، فان اكثر تلاميذه الذين قدموا للعربية ونحوها أجل الخدمات كانوا من الموالي . ولا سبيل بعد الى الظن بأن العرب كانوا قبل ان يفكروا في وضع النحو اقل اعتزازا بلغتهم منهم حين فكروا بوضعه ، فلماذا اذن لم يخطر لهم في بال ــ اذا كانت القومية من جملة الاسباب الدافعة الى وضع النحو ــ ان ينظروا في لغتهم ويستخلصوا قواعدها الا بعد حقبة طويلة على خروجهم الى اقطار المعمورة لنشر دينهم الجديد ؟

---

(١) الدكتور شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، ص ١٢ .
(٢) اللغة بين القومية والعالمية ، ص ١٩٥ .

واما ان يخشى العرب على لغتهم من « الفناء والذوبان » في اللغات الاعجمية ، فنعتقد انها مسألة مبالغ فيها لسببين :

الاول – ان العربية لغة الشعب « الغالب » . ولم يكن هذا الشعب ابان احتكاكه بالاعاجم احتكاكا مباشرا ، وعلى نطاق واسع (لا يغرب عن بالنا ان عددا من الاعاجم كانوا يعيشون بين ظهراني العرب قبل ظهور الاسلام ، وانه عرف منهم بعد الاسلام عدد من الصحابة والتابعين) أقل رقيا في حضارته او ثقافته او آداب لغته ، ليخشى على لغته من الفناء في لغات الشعوب المغلوبة (١) . وهو فوق ذلك كان يحمل اليها سجلا ناصعا مكتوبا بهذه اللغة ويسعى الى نشره بين افرادها ، وهذا السجل العربي المبين كان حافزه الى الخروج اليها ، والاحتكاك بها ، فكيف يخشى بعد ذلك فناء وذوبانا للغته في لغاتها ؟ ثم ان التاريخ نفسه يشهد بعكس هذا . فقد ارتضى نفر غير قليل من الاعاجم اللغة العربية لسانا لهم وكتبوا بها والفوا وصنفوا ، وكان منهم ادباء وشعراء فحول مشهود لهم بالبلاغة والفصاحة .

الثاني – ان العراق ، موطن النحو الاول ، لم يكن عندما فتحه العرب ومصروا امصاره « بيئة » اعجمية صرفا . فقد كان العنصر العربي – على العكس من ذلك – طاغيا في البصرة ابان نشأة النحو ، بشكل لا يسمح بحال للفساد ان يدب في اللغة العربية عن طريق الاعاجم ، وهم الفئة القليلة .

واما الدوافع الاجتماعية ، فأهمها بعد العرب عن البادية وفساد سلائقهم ونشوء اجيال من العرب من امهات غير عربيات . وقد رأينا آنفا ان اللغة موروث اجتماعي باعتباره اداة الاتصال بين ابناء البيئة الواحدة ، وان هذه اللغة (المحكية طبعا) لا يمكن ان يرتكب متحدثها خطأ دون ان يشعر بذلك ويسعى الى تصحيحه

---

(١) انظر في صراع اللغات كتاب (علم اللغة) للدكتور علي عبد الواحد وافي ، ص ٢١٠ وما بعدها .

من تلقاء ذاته . واذا كان لهذه اللغة ان يلحقها التطور والتغير من جيل الى جيل ، فان ذلك سيحدث حتى في البيئة الواحدة — وان خلت من كل عنصر غريب — لاسباب عدة لا مجال الى ذكرها في هذا البحث . وليس في مقدور أحد ان يقف هذا التطور ، مهما اجتهد المجتهدون في وضع معجمات اللغة وتحديد الفاظها وضبط قواعدها (١) . وهذا ابن جني يقول (٢) : « ليس احد من العرب الفصحاء الا يقول انه يحكي كلام ابيه وسلفه ، يتوارثه آخر عن اول وتابع عن متبع . وليس كذلك اهل الحضر ، لأنهم يتظاهرون بينهم بأنهم قد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب الى اللغة العربية الفصيحة. غير ان كلام اهل الحضر مضاه لكلام فصحاء العرب في حروفهم وتأليفهم ، الا أنهم اخلوا بأشياء من اعراب الكلام الفصيح » .

وحتى « الاعراب » وجد من القدماء من أكد انه ليس محتاجا اليه دائما ، وانما يحتاج اليه في بعض الكلام دون بعض لضرورة الافهام . فهذا ابن الاثير (٣) يؤكد بأن « الواضع (للنحو) لم يخص منه شيئا بالوضع ، بل جعل الوضع عاما . والا فاذا نظرنا الى ضرورته واقسامه المدونة ، وجدنا اكثرها غير محتاج اليه في افهام المعنى . الا ترى انك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له : قوم ، باثبات الواو ، ولم تجزم ، لما اختل من فهم ذلك شيء ؟ وكذلك الشرط ، لو قلت : ان تقوم اقوم ، ولم تجزم ، لكان المعنى مفهوما ؟ والفضلات كلها تجري هذا المجرى ، كالحال والتمييز والاستثناء . فاذا قلت : جاء زيد راكب ، وما في السماء قدر راحة سحاب ، وقام القوم الا زيد ، فلزمت السكون في ذلك كله ، ولم تبين اعرابا ، لما توقف الفهم على نصب الراكب والسحاب ، ولا على نصب زيد . وهكذا يقال في المجرورات ، وفي المفعول فيه ، والمفعول له ، والمفعول معه ، وفي المبتدأ والخبر ، وغير ذلك من اقسام أخر لا حاجة الى ذكرها .

---

(١) علم اللغة ، ص ٢٢٨ .
(٢) الخصائص ، ج ٢ ، ص ٢٩ .
(٣) المثل السائر ، ص ٥ .

لكن خرج عن هذه الامثلة ما لا يفهم الا بقيود تقيده . وانما يقع ذلك في الذي تدل صيغته الواحدة على معان مختلفة . ولنضرب لذلك مثالا يوضحه فنقول : اعلم ان من اقسام الفاعل والمفعول ما لا يفهم الا بعلامة ، كتقديم المفعول على الفاعل ، فانه اذا لم يكن ثم علامة تبين احدهما من الآخر ، والا اشكل الامر ، كقولك : ضرب زيد عمرو ، ويكون زيد هو المضروب . فانك ان لم تنصب « زيدا » وترفع « عمرا » ، والا لا يفهم ما اردت . وعلى هذا ورد قوله تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء » . وكذلك لو قال قائل : ما احسن زيد ، ولم يبين الاعراب في ذلك لما علمنا غرضه منه ، اذ يحتمل ان يريد به الاخبار بنفي الاحسان عنه ، ولو بين الاعراب في ذلك فقال : ما احسن زيدا (بفتح نون احسن) ، وما احسن زيد (برفع احسن وجر زيد) ، وما احسن زيد (بفتح نون احسن ورفع زيد) ، علمنا غرضه وفهمنا مغزى كلامه لانفراد كل قسم من هذه الاقسام بما يعرف به من الاعراب ، فوجب حينئذ بذلك معرفة النحو ، اذ كان ضابطا لمعاني الكلام ، حافظا لها من الاختلاف » .

ونضيف نحن الى ما قاله ابن الاثير انه ، حتى في الامثلة التي ساقها ، لا يعدم المتكلم باللغة الحديث والتخاطب وسيلة للتعبير عن مراده . ففي مثل « ضرب زيد عمرو » يلجأ الى القول : « زيد ضرب عمرو » اذا كان الضارب زيدا والمضروب عمرا ، والى القول : « عمرو ضرب زيد » اذا كان العكس . وبالنسبة الى « ما احسن زيد » ، لا تدل هذه الجملة في اللغة المحكية على غير نفي الاحسان عن زيد ، اذا لم يكن في نبرة الصوت ما يدل على تعجب من احسان زيد . اما السؤال عن أحسن ما في زيد فيكون باساوب آخر من اساليب التعبير .

ويقودنا هذا الى التطرق مرة اخرى الى « السليقة » اللغوية ، فنقول ان القول بها ، اذا صح في مجال اللهجات المحكية ، فانه لا يصح بحال على مستوى اللغة النموذجية الادبية او « الفصحى » . فهذه الاخيرة تحتاج الى مران واعمال فكر وملاحقة وظائف الكلمات

الخاطر ودون الوقوع في اللحن . وحتى من تمرس بها وباتت لا تكلفه كبير جهد ، وغدت بمنزلة « السليقة » بالنسبة اليه ، لا نراه يستخدمها في غير المواقف الادبية ، او العلمية ، او التعليمية . اما اذا عاد سيرته الطبيعية في تصريف شؤون حياته اليومية ، فانه يعود الى لهجته ، او بالاحرى تغلب عليه هذه اللهجة وتتحكم به .

وعلى هذا الاساس ، لا يسعنا التسليم بأن العرب كانوا قبل وضع النحو يمتازون بسلائق تجري في اعراب الكلام مجرى «النحاة» ، او تلتزم بما «رسموه» من حدود العربية ، ثم فسدت سلائقهم بالابتعاد عن مواطن لغتهم الاولى . وكل ما يمكننا التسليم به ان هؤلاء العرب انفسهم قد ضعفت « الفصحى » على السنة بعضهم لانشغالهم بأمور حياتية عديدة ، او لانصرافهم عن قراءة كتابهم الكريم بالحماسة التي كانوا يقراون بها في صدر الاسلام ، او لقلة اتصالهم بتراثهم الادبي ، كما ظل الاعراب يتصلون به ويعتزون بحفظه وحفظ مفاخر شعرائهم ونوادر ادبائهم وفصحائهم ، فكان هذا البون الشاسع الذي لاحظه اللغويون بين ما يجري على السنة اهل الامصار وبين ما كان الاعراب يروونه لهم من امور يمكن نعتها بأنها « مواقف ادبية » بحت . وكان بالتالي ذلك الاعجاب بفصاحة الاعراب ، والقول بمحافظتهم على سليقتهم اللغوية ، لالتصاقهم بالبادية التي عدوها مهد اللغة الاول .

اما اختلاط العرب بالاعاجم ، فانه ليس جديدا في التاريخ . فقد عرفت الجزيرة العربية في اطرافها وفي قلبها عددا من غير العرب حلوا ــ قبل الاسلام بكثير ــ بين ظهرانيهم ، وعايشوهم ، واحتكوا بهم على صعيد التعامل التجاري ، فكان من نتيجة ذلك ان تسربت من لغاتهم العديدة الى العربية مفردات كثيرة لم يأنف « الوحي » المجيد من استخدام بعضها في الكتاب الكريم ، وكأنها من صميم اللغة العربية ، حتى ان بعض اللغويين الاوائل راح يتمحل لها اصولا عربية صميمة . ونذكر في هذا الصدد ، وعلى سبيل المثال

لا الحصر ، ما قال به ابن دريد في معجمه « جمهرة اللغة » مـن ان لفظ « الفردوس » مشتق من « الفردسة » بمعنى السعة ؛ مـع ان الكلمة اعجمية لا تمت الى العربية بصلة .

وهناك اكثر من شاهد علـى اختلاط العرب بغيرهم من الامم في ما تركه لنا الاقدمون بشأن تسويغ عدم اخذ اللغة الا عن اولئك الذين لم يتصلوا بالاجانب . فقد قـال فـي «المزهر» (١) بصدد الاسباب التي منعت اخذ اللغة عن غير الموثوق في صحة السنتهم : « وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن اطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم . فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام ، لمجاورتهم اهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان واياد لمجاورتهم اهل الشام، واكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا مـن عبد القيس وازد عمان، لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من اهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف واهل الطائف ، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ؛ ولا من حاضرة الحجاز ، لان الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم ، وفسدت السنتهم . . . » .

ومع ذلك فقد نقل في الصفحة التي قبلها مباشرة عـن عمر قوله « لا يملين في مصاحفنا الا غلمان قريش وثقيف » ، وعن عثمان قوله « اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف » ، وعن ابي عبيدة قوله « وقد جاءت لفات لاهل اليمن في القرآن معروفة » . فلسنا ندري في الواقع ما السر في عدم اخذ اللغة عن « ثقيف » مثلا ، ما دام قد كان منهم مملون في المصاحف وكتابا لنصوصه الشريفة ، وما دام واحد من امراء البيان والفصاحة ، الحجاج ، هو من صميمهم . كما اننا نستغرب عدم الاحتجاج بفصاحة « تغلب »

---

(١) ج ١ ، ص ٢١٢ .

لاخذ اللغة عنها ، مع وجود واحد من فحول الشعراء من نسلها ، الاخطل ، يحتج بشعره في جميع كتب اللغة . ونقف مدهوشين امام اهمال الاخذ عن اليمن وفي القرآن الكريم ، اشرف سجل للغة العربية وبيانها ، لفات معروفة لاهل اليمن . بل ان منهم شعراء مقدمون ، وكلهم حجة وثقة ، كامرىء القيس في الجاهلية وحسان بن ثابت ، شاعر النبي عليه الصلاة والسلام ، في الاسلام (١) .

ثم ان كتب الرواة قد حفظت لنا نماذج عدة عما كان يعتبر من قبيل اللحن ، لا لشيء الا لأن الناطقين بالعربية من غير ابنائها لم يكونوا يحسنون اخراج بعض الحروف مخارجها ، وكلها تؤكد وجود « الاعاجم » في قلب الجزيرة باعداد لا بأس بها يوم ظهر الاسلام فدخلوا فيه افواجا ، من مثل بلال الحبشي مؤذن الرسول صلى اله عليه وسلم ، وسلمان الفارسي وصهيب الرومي صاحبيه. ثم لا ننس دفاعه المجيد عن « عروبتهم » وشهادته الرائعة بأن كل من تكلم بالعربية فهو من ابنائها . فلماذا اذن ذلك الخوف من فساد اللغة باحتكاك ابنائها بغيرهم من الامم ، اذا كان قد سبق لهم ان احتكوا بهم وتسربت من لغاتهم اشياء الى العربية ، قبل زمن ليس باليسير على التفكير في وضع النحو ؟

الجواب على ذلك في اعتقادنا انه اتى على « النحو » حين اختلط فيه مفهومه الوظيفي بمفهوم آخر ، وهو الحرص على ضبط اللغة ككل . فمن الطبيعي ان تكون محاولات النحاة الاول وانظارهم قد اخذت طريقها الى الوجود بعد محاولات مماثلة لاستقصاء مظاهر اللغة الاخرى عن طريق جمعها واستقراء خصائصها ودقائقها من المصادر التي اعتقدوا انها الصالحة لذلك . ومن الطبيعي كذلك ان يتأثر النحاة خطى جامعي اللغة في عدم الاطمئنان الى كل ناطق بالعربية ، فكان هذا التداخل العجيب في مهمة جامعي اللغة والعاملين على استنباط قواعدها النحوية ، فلا يدرى مثلا اذا كان ابو الاسود لغويا بكل ما في هذه الكلمة من شمول ، او نحويا بكل

(١) ابن رشيق ، العمدة ، ج ١ ، ص ٨٩ .

ما في الكلمة من تخصيص . وقل الشيء نفسه عن ابي عمرو بن العلاء .

فالحق انه اذا سلمنا بتأثر لغة من اللغات بلغة اخرى عن طريق الاقتراض ، أي بأن تستعير احداهما مفردات من الاخرى ، فانه لا يسعنا التسليم بأن ذلك يفسدهما ؛ بل هو على العكس من ذلك ، سبيل الى اغنائهما وجعلهما اكثر استجابة لكل ما يستجد من امور في حياة ابنائهما . كما ان اقتراض احداهما بعض تعابير الاخرى (نضرب مثلا على ذلك اقتراض العربية بعض التعابير المجازية المستعملة في اللغات الاجنبية كقولنا اليوم : ذرا للرماد في العيون) ليس دليل مرض ، بل هو — على العكس — دليل عافية . وفي رأينا ان اللغة تظل سليمة ما دامت محافظة على اصول تنظيم الكلام والتركيب المميزة لها . ولا نظن ان العربية ، برغم كل ما اعتورها من تطور وتغير عن طريق اقتراض المفردات والتعابير الاجنبية ، قد اخلت بشيء من امر تنظيم الكلام ، كما يفهم من قول ابن جني (١) حين يؤكد لنا ان ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم . فاذا قلت : طاب الخشكنان (٢) (بضم نون هذه الكلمة) ، فهذا من كلام العرب . لانك باعرابك اياه قد ادخلته في كلامهم .

واننا لنميل الى الاعتقاد بأن العربية قد ظلت محافظة في اصول التركيب على صفائها واصالتها (٣) . ويزيدنا رسوخا في اعتقادنا ما يحدثوننا به عن مغربي يروي حادثة رهس بسيارة فيقول : « كرزته الماكينة مرسوات مرسوات» . وترجمة ذلك : « رهسته السيارة اربا اربا » . فأما « كرزت » فتعريب للفعل الفرنسي «écraser» بمعنى سحق . واما « الماكينة » فهي الكلمة

(١) الخصائص ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .
(٢) فسره داود الانطاكي في التذكرة ١٢٩/١ بأنه « خالص دقيق الحنطة اذا عجن بشيرج وبسط وملىء بالسكر واللوز والفستق وماء الورد وجمع وخبز ، واهل الشام تسميه المكفن » . وانظر المعرب للجواليقي ، ص ١٣٤ . ويقابله في هذا العصر البسكويت . (حاشية الخصائص ، ج ١ ، ص ٣٥٧) .
(٣) راجع في هذا الشأن كتابنا « الانفعالية والابلاغية في بعض اقاصيص ميخائيل نعيمة » ص ٤٦ .

الايطالية للدلالة على السيارة . واما « مرسوات » فجمع مؤنث سالم لكلمة « Morceau » الفرنسية بمعنى « قطعة » . فهذه العبارة ، على خلوها من أي لفظ عربي ـ باستثناء ضمير الغائب ـ ، ما زالت تحتفظ من الناحية التركيبية والتنظيمية بكل خصائص العربية : فعل متصل بهاء الغائب (مفعولا به) ، وفاعل ، وحال . ومن الناحية الصرفية : فعل مؤنث ، وجمع مؤنث سالم رغم اعجمية الكلمة .

فهذا العربي ، على بعده في الزمان والمكان عن مهد اللغة العربية الاول ، وعلى الرغم من استماتة الاستعمار في محاولة القضاء على العروبة فيه وفي لغته ، ما يزال يحتفظ من تراثه اللغوي بميزتين اساسيتين : نظام الجملة والصيغ الصرفية . فهل يعقل بعد هذا ان نصدق دعوى فساد سليقة العربي لبعده عن مهد لغته الاول ، ولما يمض على نزوحه عنه اكثر من نصف قرن ؟

وأما نشوء اجيال من امهات غير عربيات ، فأمر لا يمكن انكاره ، وان لم يكن بالجديد كل الجدة في تاريخ الامة العربية . فالرجال في الجاهلية استولدوا السبايا والاماء الحبشيات والروميات . ومع ذلك عرف العرب من نسل اولئك الاماء عددا كبيرا من فحول الشعراء عرفوا في تاريخ الادب باسم « غربان العرب » ومنهم الشاعر الفحل عنترة بن شداد الذي لا يمكن لانسان الانتقاص من فصاحته وبلاغة عربيته . وبعد الاسلام عرف العهد الاموي نفرا من الموالي تمكنوا من امتلاك ناصية العربية الفصحى ، وان بقيت في السنتهم لكنة عند اخراج بعض الحروف العربية مخارجها الصحيحة ، فكانوا ينطقون بالحاء هاء ، وبالقاف كافا وغير ذلك . ويحدثوننا عن فقيه كبير من بين هؤلاء الموالي هو «مكحول» ، وعن محدث ثقة هو « نافع » استاذ الامام مالك ، وعن شاعرين معروفين هما « زياد الاعجم » الذي يروي الجاحظ انه كان ينطق السين شينا والطاء تاء ، وان المهلب بن ابي صفرة ممدوحه اختار له غلاما فصيحا ينشد له شعره في المجالس، و «ابو العطاء السندي»

الذي اختار له ممدوحه من يلقي شعره ، بعد ان قال :

أعوزتني الـرواة يـا ابـن سليم
وأبى ان يقيـم شعـري لسـاني
وغـاـى بالـذي أجمجـم صدري
وشكـاني لعجمتـي شيطـاني
فاكفني مـا يضيق عنـه رواتي
بفصيح مـن صـالح الغلمـان
يفهم الناس مـا اقول من الشعر فان البيان قد أعياني

ولا نظن ان ما لاحظه اللغويون من « الاخطاء » التي كانت تجري بهـا السنة العامة من الناس ، كـان دافعا اساسيا الـى وضع النحو . فهذه الاخطاء ـ وقد لا تكون اخطاء حقا علـى صعيد لغة الحديث والتخاطب ، وان كانت كذلك بالقياس الى لغـة الادب والكتابة ـ لا يمكن ان نتصور انها كفيلة بافساد اللغة ، ولا سيما اذا اعتبرنا ان عامة الشعب تؤلف عادة سدا منيعا في وجـه لغة الغازي ، فكيف اذا كانت اللغة المشكو من احداثها الفساد هي لغة المغزو ؟ والحق ان ما يطالعنا من روايات في الكتب والمطولات عمن كانت تجري على السنتهم لحون لتحدرهم من امهات اعجميات ، يكاد يقتصر على نفر من ابناء الخاصة والطبقة الحاكمة ربي بعضهم في مجتمعات مغلقة ضيقة يسود فيها العنصر الاعجمي ، كعبيد الله بن زياد بن ابيه (١) الذي نشأ بالاساورة (قوم من العجم نزلوا قديما بالبصرة) مع امه مرجانة ، ولا يمكن في رأينا اعتباره سندا علميا في بحث اسباب وضع النحو ، مـا دام ظاهرة ضيقة خاصة لا تنسحب على جميع افراد المجتمع العربي في ذلك الحين .

وبعد ، فما الذي يمكن الاطمئنان اليه من اسباب وضـع

(١) يستدل من بعض الروايات ان زيادا اراد ابا الاسود الدؤلي علـى وضع النحو لان بنيه كانوا يلحنون . راجع هذه الرواية في « انبـاه الرواه » ، ج ١ ، ص ١٦ .

النحو ؟ اعتقادنا ان اقبال الاعاجم على تعلم العربية وقراءة كتاب الله الكريم أوجه الاسباب جميعا . فقد دعي هؤلاء القوم الى الايمان بالله وبكتابه معجزة الاسلام الكبرى في اعجازه وسحر بيـانه ، كما دعوا الى قراءة بعض آيات الكتاب في اثناء صلواتهم . ثم ان القرآن مصدر التشريع القويم ، ومنهل الفضائل والاخلاق ، وينبوع تنظيم العلاقات الانسانية من خلال الدين الجديد . ولم يكن بد لفهم كل هذه الامور من اتقان اللغة التي بها صيغت ، ومعرفة خصائصها ودقائقها ، ولا سيما بالنسبة الى المتطلعين الـى التفقه فـي هذا الدين .

وكان ان نهد لهذه المهمة الجليلة الخطيرة نفر مـن المعلمين والمقرئين يلقنون معتنقي العقيدة الجديدة نصوص الكتاب . وكان ان اعترضتهم ــ بلا ريب ــ مشكلات لغوية عديدة ، منها مـا يدخل في حقل الصوتيات ، ومنها ما هو من شأن علم تنظيم الكلام وتركيبه، ومنها ما هو خاص بالصرف وبالاعراب . ونتصور تبعا لذلك انه كان اذا تعذر على الطالب نطق احد الحروف التي لا وجود لمثلها في لغته الاصلية ، عد ذلك لحنا . واذا سها فرفع بدل ان ينصب ، او نصب بدل ان يجزم (لا ننس ان المصاحف لم تكن مشكولة قبل اقدام ابي الاسود على نقطها نقط اعراب) اعتبر سهوه لحنا . واذا غاب عن حفظه فقرأ كلمة على غير ما هي مرسومة عليه (لا ننس كذلك ان المصاحف لم تكن منقوطة نقط اعجام وكان من الممكن النطق بالحرف المرسوم « ياء » مثلا من غير نقطتين اسفله ، « باء » او « تاء » او « ثاء » او « نونا ») كان ذلك منه لحنا .

واذ كان من غير الجائز اللحن في كلام الله عز وجل نظرا لمـا له من قدسية في نفوس المعلمين والمقرئين ، كان لا بد من اعمال النظر وكد الذهن لايجاد الوسائل الكفيلة برد غائلة اللحن عـن كتاب الله ، والعمل على ادائه من قبل الطلاب اداء صحيحا فصحيا لا عوج فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولا نظن الا ان هذه الانظار اللغوية ــ وهي النواة الاولى لعلم اللغة عامة ، وعلـم النحو

بخاصة ــ كانت في منشئها مدفوعة اولا واخيرا بعامل ديني محض ، وان العامل الاجتماعي ــ وجود الاعاجم او نشوء اجيال من امهات غير عربيات ــ لا يعدو ان يكون من « العوامل المساعدة » علـــى نشأة تلك الانظار .

ومما يقوي اعتقادنا هذا ، ان مصطلح « اللحن » بمعنى الخطأ اللغوي ، ظهر في فجر الاسلام ومنذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم (لنذكر قوله : انا من قريش ونشأت في بني سعد ، فأنى لي اللحن، وقول ابي بكر : لأن اقرأ فاسقط احب الي من ان اقرأ فالحن) ، وكذلك ما نجده في بطون الكتب من جزم بأن علم العربية (او علم النحو) من العلوم الشريفة لأنه العلم باللغة التي نزل بهـــا القرآن الكريم . واليك طائفة من هذه النصوص نقدمها علــــى سبيـــل المثال :

جاء في كتاب الصاحبي (ص ٦٦) :

« وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : اعربوا القرآن . وقد كـــان النـــاس قديمـــا يجتنبون اللحن فيمـــا يكتبونه او يقرأونه اجتنابهم بعض الذنوب » .

وجاء في الخصائص (ج ٣ ص ٢٤٥) تحت عنوان « باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية » :

« اعلم ان هذا الباب من أشرف ابواب هذا الكتاب ، وان الانتفاع به ليس الى غاية ولا وراءه نهاية . وذلك ان اكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد ، وحاد عن الطريقة المثلى اليها ، فانما استهواه واستخف حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي خوطب الكافة بها » .

وجاء في « صبح الاعشى » للقلقشندي (ج ١ ص ١٦٨) :

« قال صاحب « الريحان والريعان » : ولـــم يـــزل الخلفـــاء الراشدون بعد النبي صلى الله عليه وسلم يحثون على تعلم العربية

وحفظها والرعاية لمعانيها ، اذ هي من الدين بالمكان المعلوم والمحل المخصوص » .

وفي ص ١٧١ :

« قال ابو جعفر النحاس : وقد صار اكثر الناس يطعن على متعلمي العربية جهلا وتعديا ، حتى انهم يحتجون بما يزعمون ان القاسم بن مخيمرة قال : النحو اوله شغل وآخره بغي . قال : وهذا كلام لا معنى له لأن اول الفقه شغل وأول الحساب شغل وكذا اوائل العلوم . أفترى الناس تاركين العلوم من أجل ان أولها شغل ؟ قال : واما قوله « وآخره بغي » ، ان كان يريد به ان صاحب النحو اذا حذقه صار فيه زهو واستحقر من يلحن ، فهذا موجود في غيره من العلوم من الفقه وغيره ، في بعض الناس ، وان كان مكروها . وان كان يريد بالبغي التجاوز فيما لا يحل ، فهذا كلام محال ، فان النحو انما هو العلم باللغة التي نزل بها القرآن وهي لغة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلام أهل الجنة ، وكلام اهل السماء » .

* * *

نعود فنوجز ما قدمناه في هذا الفصل فنقول ان نشأة النحو العربي كانت ، كنشأة النحو في أية لغة من اللغات وليدة الاحساس بالحاجة الى ضبط قواعد اللغة الفصحى من مكتوب ومحفوظ ، خصوصا وان هذه اللغة لم تعد مجرد اداة للتواصل الاجتماعي ، وانما اصبحت فوق ذلك وعاء النص المقدس والسبيل الى فهم العقيدة الدينية . وقد تم ذلك حين استقر العرب بعد الفتوحات واستتبت حياتهم ، وبعد ان أخذ العقل العربي يرقى ويتفاعل بمختلف التيارات الفكرية التي هبت عليه في مواطنه الجديدة ، وبعد ان تكوّن رعيل من المؤدبين نهدوا للمحافظة على كتاب الله الكريم وتراث العرب الادبي العظيم ، فنما لديهم مع الزمن شعور بضرورة

وضع ما به يضبطون كل ذلك ، وراحوا يستقرئون ما توارثوه من نصوص ، ويرصدون مختلف ظواهر اللغة ، ويحاولون استنباط القواعد والقوانين التي تنظمها . ثم تعاقبت الاجيال ، واخذ كل جيل يزيد في هذه المكتشفات شيئا ، فارتفعت المداميك ، وكان لنا من حصيلة انظار العلماء في كل عصر ، هذا البناء الشامخ المتكامل ، الدقيق النظام ، المنطقي النهج ، المتشعب المباحث ، المعقد الصور .

ومهما يكن من امر « اللحن » باعثا على نشأة النحو ، فان ما نميل الى الاعتقاد به هو انه كان يخشى من اللحن على اللغة الادبية النموذجية وحدها دون الكلام اليومي الذي يتواصل بـه الناس في تصريف شؤون حياتهم اليومية . ولعل ما يقوي لدينا هذا الاعتقاد ما جاء في « صبح الاعشى » (ج ١ ص ١٧٣) :

« والذي يقتضيه حال الزمان ، والجري على منهاج الناس ، ان يحافظ على الاعراب في القرآن الكريم ، والاحاديث النبوية ، وفي الشعر والكلام المسجوع ، وما يدون من الكلام ، ويكتب من المراسلات ونحوها . ويغتفر اللحن في الكلام الشائع بين الناس ، الدائر على ألسنتهم مما يتداولونه بينهم ويتحاورون به في مخاطباتهم » .

وان قال قائل بأن صاحب « صبح الاعشى » من المتأخرين الذين لا يمكن الركون الى اقوالهم اذا قسنا ما كانت عليه الحال قبله ، أحلناه على هذه الرواية عن عيسى بن عمر الثقفي ، وهو من اوائل النحاة . فقد روي عنه انه خاصم رجلا الى بلال بن ابي بردة، فجعل عيسى يشبع الاعراب ويتعمق في الالفاظ . وجعل الرجل ينظر اليه ، فقال له القاضي : لأن يذهب بعض حق هذا أحب اليه من تركه الاعراب ، فلا تتشاغل به واقصد بحجتك » .

واما محاولة بعض الباحثين ان يرى في كل ما سبق كتاب سيبويه ضربا من الخرافات والاساطير ، فانها من قبيل التعسف الذي لا مسوغ له . فمنطق الامور يأبى ان يظهر علم النحو ـ كما

نعرفه من خلال « الكتاب » ــ هكذا فجأة ومن غير مقدمات . واذا كان من سبيل الى الشك ، فهو ــ وهذا ما اردناه من خلال هذا الفصل ــ في تلك القصص التي رويت عن الاسباب الداعية الى نشوء علم النحو ، والتي اذا طهرت مما عاق بها من الروائية ، يظل ما يبقى منها بعد التطهير صالحا لتسويغ نشأته ، وهي أمر واقع لا سبيل الى انكاره مهما ادعى المدعون ، وزعم الزاعمون ، وحاول المغرضون من القول بأن النحو العربي مستورد وغريب ، وانه لا يمت الى الروح العربية بصلة .

واما ذهاب لغويينا الاوائل الى ان « الاعراب » سجية وطبع في اهل البادية ، فلا نظنه الا من قبيل تعظيم النحاة لهم واعجابهم بفصاحتهم ، لأنهم اساتذتهم ، كما تشهد بذلك كتب التراجم واللغة . واننا لعلى يقين بأنه لو كان الاعراب سجية فيهم حقا ، لما كان بعضهم عند وفادته الى العراق لرواية اللغة ، يجلس لتعلم النحو على المشتغلين به ، كما هي حال ابي مسحل الذي يقال انه اخذ النحو عن الكسائي (١) .

بقي لنا ملاحظة اخيرة حول كل هذه البلبلة في موضوع نشأة النحو والدواعي اليه . ففي اعتقادنا ان مرجع هذه البلبلة الى امور ثلاثة :

١ ــ ان التأريخ لنشأة النحو لم يتم الا بعد ان نضج هذا العلم وتبلورت اطره العامة وتركزت مصطلحاته الفنية التي لم يكن النحاة على شيء من الدراية بمدلولاتها . وقد جر ذلك الرواة الى القول بأن ابا الاسود مثلا قد وضع باب التعجب ، او انه تكلم على الحروف المشبهة بالفعل ، الى آخر ما هنالك من مصطلحات وتقسيمات .

٢ ــ انه انضاف بمرور الزمن تزيدات كثيرة في الروايات ، ومحاولات لنسبة الفضل في وضع النحو وتقسيم ابوابه وتفريع قياسه ــ أي كما عرفه المؤرخون انفسهم ــ الى بعض من يعزون

(١) راجع ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ٢٩٧ .

عليهم او ينتصرون لنحلتهم المذهبية أو عقيدتهم السياسية . ولعلنا لا نغالي اذا قلنا بأن الشطط قد بلغ احيانا بهؤلاء الرواة حدا تغدو معه رواياتهم أشبه ما تكون بالاساطير .

٣ ـ الفوضى التـي طبعت دراسة الظواهر اللغوية . وقـد تمثلت هذه الفوضى في عـدم الفصل بـين النصوص المكتوبة او المحفوظة (الفصحى) ، وبين الفوارق اللهجية في لغة التخـاطب اليومية . ولعل لهم عذرا في ان الادب العربي ظل الى زمن أدبـا منطوقا يتواتر بطريق المشافهة والرواية ، ولا يبعد ان يكون قد حدثت فيه تغييرات وتبديلات بفعل انتفاء العصمة عن الذاكرة ، او بتأثير احيانا من سلطان اللهجة المحلية على اللغة الادبية النموذجية المشتركة بين العرب جميعا .

الفصل الثالث

واضع النحو

يطول البحث عن أول واضع للنحو العربي دون ان يتمكن معه الباحث من الوصول الى رأي حاسم جازم . ذلك ان من أرّخوا لنشأة هذا النحو من القدماء لم يستطيعوا هم أنفسهم ، على قرب عهدهم بالامر ، ان يقطعوا فيه بقول . فقد «اختلف الناس في أول من رسم النحو ، فقال قائلون : ابو الاسود الدؤلي . وقال آخرون : نصر بن عاصم الدؤلي (ويقال الليثي) . وقال آخرون : عبد الرحمن بن هرمز . واكثر الناس على انه ابو الاسود الدؤلي ، واسمه ظالم بن عمرو بن سليمان بن عمر بن حلس بن نفاثة بن عدي بن الدئل بن بكر بن كنانة ، وكان من سكان البصرة » (١) .

والحقيقة ان قولنا « على قرب عهدهم » ليس الا من قبيل التجوز ، اذ ان الفارق الزمني بين وفاة ابي الاسود وابي الطيب اللغوي مثلا (يعتبر هذا الاخير اول من نعرف من الذين ارخوا للنحاة وطبقاتهم) يكاد يبلغ القرون الثلاثة ، وهو زمن كفيل بأن يزيف مجال البحث بأكثر من مغالطة تاريخية . لكننا ، اذ كنا لا نملك من امر التاريخ لوضع النحو سوى ما خلفه لنا ابو الطيب ومن جاء بعده من أصحاب التراجم كالسيرافي والزبيدي وابن النديم وابن الانباري والقفطي وغيرهم من المتأخرين ، فانا سنعمد الى استعراض اهم آرائهم في هذا الصدد ، راجين ان نستهدي بها الى ما نعتقد انه من الممكن ان يكون حقيقة علمية يركن اليها .

---

(١) اخبار النحويين البصريين ، ص ١٣ .

جاء في « مراتب النحويين » (١) لابي الطيب اللغوي المتوفى عام ٣٥١ هـ ما يلي :

« ... ثم كان اول من رسم للناس النحو ابو الاسود الدؤلي فيما حدثنا به ابو الفضل جعفر بن محمد بن باتبويه ، قال : حدثنا ابو اسحاق ، ابراهيم بن حميد ، قال : اخبرنا ابو حاتم السجستاني ، واخبرنا ابو بكر ، محمد بن يحيى ، قال : حدثنا محمد بن يزيد النحوي ، قال : حدثنا ابو عمر الجرمي عن الخليل ، قالوا : وكان ابو الاسود أخذ ذلك عن امير المؤمنين علي عليه السلام، لأنه سمع لحنا فقال لابي الاسود : اجعل للناس حروفا ــ وأشار له الى الرفع والنصب والجر ــ فكان أبو الاسود ضنينا بما اخذه من ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام » .

وجاء في « اخبار النحويين البصريين » (٢) لأبي سعيد السيرافي المتوفى عام ٣٦٨ هـ :

« اخذ ابو الاسود عن علي بن ابي طالب عليه السلام العربية ، فكان لا يخرج شيئا مما أخذه عن علي بن ابي طالب عليه السلام الى أحد ، حتى بعث اليه زياد : اعمل شيئا تكون فيه اماما ينتفع الناس به وتعرب به كتاب الله ، فاستعفاه من ذلك ، حتى سمع ابو الاسود قارئا يقرأ : ان الله بريء من المشركين ورسوله، فقال : ما ظننت ان أمر الناس صار الى هذا » .

وفي « طبقات النحويين اللغويين » (٣) لأبي بكر الزبيدي المتوفى عام ٣٧٩ هـ :

« وقال ابو العباس محمد بن يزيد (٤) : سئل ابو الاسود الدؤلي عمن فتح له الطريق الى الوضع في النحو وأرشده اليه ،

---

(١) ص ٦ .
(٢) ص ١٥ ــ ١٦ .
(٣) ص ٢١ .
(٤) هو المبرد .

فقال : تلقيته من علي بن ابي طالب رحمه الله . وفي حديث آخر قال : القى عليّ اصولا احتذيت عليها » .

وفي « الفهرست » (١) لابن النديم المتوفى في حدود عام ٤٠٠ هـ :

« زعم اكثر العلماء ان النحو اخذ عن ابي الاسود الدؤلي ، وان ابا الاسود اخذ ذلك عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام . وقال آخرون : رسم النحو نصر بن عاصم الدؤلي ويقال الليثي . وقرات بخط ابي عبدالله بن مقلة عن ثعلب انه قال : روى ابن لهيعة عن ابي النضر قال : كان عبد الرحمن بن هرمز اول من وضع العربية .

« وقال ابو جعفر بن رستم الطبري : انما سمي النحو نحوا لأن ابا الاسود الدؤلي قال لعلي عليه السلام ، وقد القى عليه شيئا من أصول النحو ، قال ابو الاسود الدؤلي : واستأذنته ان اصنع نحو ما صنع ، فسمي ذلك نحوا » .

وجاء في « نزهة الالباء في طبقات الادباء » (٢) لأبي البركات ، كمال الدين ، عبد الرحمن بن محمد الانباري المتوفي عام ٥٧٧ هـ :

« ان اول من وضع علم العربية ، وأسس قواعده ، وحد حدوده امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، واخذ عنه ابو الاسود الدؤلي .

« ويروى ان سبب وضع علي لهذا العلم انه سمع اعرابيا يقرأ : لا يأكله الا الخاطئين (٣) » .

لكن ابن الانباري يورد الى جانب هذه الرواية سبعا اخرى ، منها واحدة مفادها انه « قدم اعرابي في خلافة عمر رضي الله عنه

---

(١) ص ٥٩ – ٦٠ .
(٢) ص ١ – ٢ .
(٣) سورة الحاقة ، الآية ٣٧ .

فقال : من يقرئني شيئا مما انزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم ، فأقراه رجل سورة (براءة) فقال : ان الله بريء من المشركين ورسوله (بالجر) ، فقال الاعرابي : أوقد بريء الله من رسوله ؟ ان يكن الله بريء من رسوله فأنا ابرا منه . فبلغ عمر عليه السلام مقالة الاعرابي فدعاه ، فقال: يا اعرابي، أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا امير المؤمنين ، اني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن ، فسألت من يقرئني ، فأقراني هذا سورة (براءة) ، فقال : ان الله بريء من المشركين ورسولِه ، فقلت : او قد بريء الله تعالى من رسوله ؟ ان يكن الله تعالى بريء من رسوله ، فأنا أبرأ منه . فقال عمر رضي الله عنه : ليس هكذا يا اعرابي . فقال : كيف هي يا امير المؤمنين ؟ فقال : ان الله بريء من المشركين ورسولُه . » فقال الاعرابي : وانا ، والله ، أبرأ ممن بريء الله ورسوله منهم . فأمر عمر رضي الله عنه الا يقريء القرآن الا عالم باللغة ، وامر أبا الاسود الدؤلي ان يضع النحو » .

ويورد كذلك رواية يتبين منها ان اول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز ، واخرى تقول بأن اول واضع للنحو نصر بن عاصم ، لكنه ما يلبث ان يخلص الى القول : « والصحيح ان اول من وضع النحو علي بن ابي طالب ، لان الروايات كلها تسند الى ابي الاسود ، وابو الاسود يسند الى علي » .

وفي « انباه الرواه » (١) للقفطي المتوفى عام ٦٢٤ هـ :

« الجمهور من اهل الرواية على ان اول من وضع النحو امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه . قال ابو الاسود رحمه الله : دخلت على أمير المؤمنين علي عليه السلام فرأيته مطرقا مفكرا، فقلت : فيم تفكر يا امير المؤمنين ؟ فقال : سمعت ببلدكم لحنا فأردت ان أضع كتابا في اصول العربية . فقلت له : ان فعلت هذا أبقيت فينا هذه اللغة العربية . ثم أتيته بعد أيام ، فألقى الي صحيفة

(١) ج ١ ، ص ٤ .

فيها : بسم الله الرحمن الرحيم . الكلام كله اسم وفعل وحرف . فالاسم ما انبأ عن المسمى ، والفعل ما انبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما انبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل . ثم قال : تتبعه وزد فيه ما وقع لك . واعلم ان الاشياء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، وليس بظاهر ولا مضمر . وانما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر . فجمعت اشياء وعرضتها عليه ، فكان من ذلك حروف النصب ، فذكرت منها ان وليت ولعل وكأن ، ولم اذكر لكن . فقال : لم تركتها ؟ فقلت : لم احسبها منها . فقال : بلى هي منها ، فزدها فيها » .

وزاد القفطي (١) :

« ورأيت بمصر في زمن الطلب بأيدي الوراقين جزءا فيه ابواب من النحو ، يجمعون على أنها مقدمة علي بن ابي طالب التي اخذها عنه ابو الاسود الدؤلي » .

وقال في موضع آخر (٢) :

« واهل مصر قاطبة يرون بعد النقل والتصحيح ان أول من وضع النحو علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ، واخذ عنه ابو الاسود الدؤلي » .

لكنه عاد فقال (٣) :

« ومن الرواة من يقول ان ابا الاسود هو أول من استنبط النحو ، واخرجه من العدم الى الوجود ، وانه رأى بخطه ما استخرجه ، ولم يعزه الى أحد قبله » .

ثم ساق القفطي ان صاحب الفهرست (ابن النديم) رأى عند رجل بمدينة الحديثة قمطرا به كتب في النحو واللغة والادب ، ومن

---

(١) نفسه ، ص ٥ .
(٢) نفسه ، ص ٦ .
(٣) نفسه ، ص ٧ .

بينها اربع اوراق يدل ما جاء فيها على ان النحو من ابي الاسود ، وترجمتها : « هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من ابي الاسود رحمة الله عليه ، بخط يحيى بن يعمر » (١) .

ماذا نستخلص من هذه الروايات ؟

١ ـ اجماعها على أن أول من فكر في وضع النحو هو علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ، سواء عن طريق القائه بعض الاصول الى ابي الاسود ، او عن طريق توجيهه وارشاده الى وضعها .

٢ ـ اجماعها على ان المنفذ لفكرة وضع النحو هو ابو الاسود الدؤلي .

٣ ـ انفراد احداها بتقرير ان ابا الاسود استنبط النحو واخرجه من العدم الى الوجود .

٤ ـ انفراد اثنتين منها بنسبة النحو الى نصر بن عاصم او عبد الرحمن بن هرمز ، وهما من تلاميذ ابي الاسود .

٥ ـ انفراد احداها بنسبة الاشارة بوضع النحو الى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وهي اغربها جميعا ، بل تبدو منافية لواقع التاريخ ، اذ يبدو من غير الممكن ان يكون الخليفة الثالث قد اتصل بأبي الاسود في البصرة ليأمره بوضع النحو للناس .

وقبل ان نتصدى لمناقشة تلك الروايات لا بد لنا من استعراض بعض آراء المحدثين فيها .

وقفة مع المحدثين

وقف المرحوم احمد امين من كل تلك الروايات موقف الرافض فقال (٢) :

« وكل هذا حديث خرافة ، فطبيعة زمن علي وابي الاسود

---

(١) نفسه ، ص ٧ ـ ٨ .
(٢) ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .

تأبى هذه التعاريف وهذه التقاسيم الفلسفية . والعلم الذي ورد الينا من هذا العصر في كل فرع ، علم يتناسب مع الفطرة وليس فيه تعريف ولا تقسيم . انما هو تفسير آية ، أو جمع لاحاديث ، ليس فيها تبويب ولا ترتيب . فأما تعريف ، واما تقسيم منطقي ، فليس في شيء مما صح نقله الينا عن عصر علي وابي الاسود . واخشى ان يكون ذلك من وضع بعض الشيعة الذين ارادوا ان ينسبوا كل شيء الى علي بن ابي طالب رضي الله عنه واتباعه . ويشهد لهذا الروايات الكثيرة المتناقضة في سبب الوضع . ومن حسن الحظ ان هذا ليس محل اتفاق بين العلماء . فمنهم من قال ان واضع النحو عبد الرحمن بن هرمز في خلافة هشام . ومنهم من قال انه نصر بن عاصم . والقائلون بهذا ـ من غير شك ـ ينكرون نسبته الى علي وابي الاسود » .

ويرى الاستاذ سعيد الافغاني ان احمد امين « لم يكن بعيدا من الصواب » في تعايقه على تلك الروايات . ويضيف هو من عنده قائلا : « ولست ادري هل أبقت الحروب والفتن لعلي وقتا يفرغ فيه للتأليف في العلوم وتنقيحها واختراعها » (١) .

ويعلق الدكتور شوقي ضيف على رواية القفطي عن رؤيته بمصر ما يجمع الوراقون على انه مقدمة علي بن ابي طالب في النحو التي اخذها عنه ابو الاسود ، فيقول : « فالمسألة لم تقف عند سطور او بعض ابواب نحوية تذكر مجملة ، بل اتسعت لتصبح مقدمة او رسالة صنفها علي بن أبي طالب ، وكأنه لم يكن مشغولا حين ذهب الى العراق والكوفة باعداد الجيوش لحرب معاوية ، ولا كان مشغولا بحرب الخوارج ، انما كان مشغولا بالنحو ووضع رسومه واصوله وفصوله . وطبائع الاشياء تنفي ان يكون قد وضع ذلك ، ونفس الرواية السالفة وما أشبهها من الروايات تحمل في تضاعيفها ما يقطع بانتحالها لما يجري فيها من تعريفات وتقسيمات منطقية لا يعقل

(١) في اصول النحو ، ص ١٦٤ (في الحاشية) .

ان تصدر عن علي بن ابي طالب ، او عن احد من معاصريه . ولعل الشيعة هم الذين نحاوه هذا الوضع القديم للنحو الذي لا يتفق في شيء واولية هذا العلم ونشأته الاولى » (١) .

ويقول الدكتور حسن عون (٢) بعد ان يقرر غموض نشأة النحو على الباحث اللغوي والمؤرخ العربي . وعلى من يكتب عن تطور الدرس النحوي في الحقبة التي سبقت كتاب سيبويه : «ليس من السهل ان نتردد في قبول الروايات القائلة بأن الدرس اللغوي قد اثمر وظهرت فيه مؤلفات قبل عصر سيبويه . فمن غير الحق ان نتصور ان هؤلاء الرواة — وهم من العلماء والمثقفين واصحاب المكانة في المجتمع — قد اختلقوا هذه الاخبار من عندهم دون ان يكون لديهم سند من الحقيقة » .

وبعد ان يسلم بانه من المحتمل ان يكون ابو الاسود قد سجل « بعض ملاحظات في النحو تتصل بقواعد النطق وتنظيم الشكل . وهو الميدان الذي ثبت انه قام بأول تجربة فيه » ، ينبه الى ضرورة « اليقظة والحيطة في فهم هذه الروايات وتقييم ما ورد فيها من مصطلحات مثل « الف كتابا » ، ومثل « وضع ابوابا في النحو » ، وما شاكل ذلك . فالمسألة في تقديرنا لا تعدو ان تكون محاولات اولية قصد منها ايصال ما فيها من معارف الى هؤلاء الذين لم يتيسر لهم حضور ما يجري من مناقشات وسماع ما قد يكون هناك من افكار وآراء ، او ان تكون مذكرات شخصية تنظم ما يقال شفويا في مجلس عام او خاص دون ترتيب بين عناصرها ولا رباط بين اجزائها . وقد يكون القصد منها حرص العالم على ما فيها ، ورغبته في الرجوع اليها ، وامنيته ان تكون نواة لعمل علمي اكبر واهم . وفي ضوء ذلك يجب ان نفرق بين مضمون هذه المصطلحات العلمية في ذلك الوقت ومضمونها في العصور التالية » .

---

(١) المدارس النحوية ، ص ١٤ .
(٢) تطور الدرس النحوي ، ص ٢٤ .

ويعلق الدكتور مازن المبارك (١) على أهم ما جاء في الروايات بعد سردها حسب تسلسلها الزمني قائلا : « نحن لا نستبعد ان يكون شيء كهذا (يقصد ان يكون قد دارت بين علي كرم الله وجهه وبين ابي الاسود محادثات في امور اللغة ، او مذاكرة في لحن سمع) دار بين علي وصديقه الدؤلي ، وان يكون وفاء ابي الاسود دفعه الى الاعتراف بالفضل مع انه هو الذي وسع وفرع ، او نفذ وطبق وعلم . واما ان يكون علي هو الواضع الاول ، وهو الذي قسم الكلام بدءا الاقسام التي لم يخالفها احد حتى اليوم ، مع ما نعرفه عنه رضي الله عنه من انهماك في امور الخلافة والخلاف فأمر عجيب » .

ويؤيد الدكتور المبارك رأيه برواية المبرد التي ذكرها الزبيدي من ان ابا الاسود اجاب حين سئل عمن فتح له الطريق الى الوضع في النحو بأنه تلقاه من علي بن ابي طالب رحمه الله ، وان ابا الاسود كان اعلم الناس بكلام العرب ، وكان يجيب في كل اللغة . وكذلك بأنه كان من القراء ، وقد قرأ على علي كما في ترجمة القفطي له .

ويخلص الدكتور المبارك الى القول :

« فأية غرابة اذا في انتدور بين ابي الاسود وصديقه ابن ابي طالب احاديث تتصل باللغة ، وكلاهما بها عالم وشغوف ؟ ان لحنا واحدا يسمعه احدهما ــ وكان اللحن اذ ذاك معروفا كما رأينا ــ كاف ليعلق احدهما عليه ، او ليكون محورا لحديث يدور بينهما . واما ماذا وضع ابو الاسود ، فهو ما نعتقد ان القدماء لم يختلفوا فيه ، ولكننا اختلفنا في فهم ما ارادوه » .

* * *

(١) النحو العربي ، ص ٢٩ وما بعدها .

لا ريب انه ليس في مقدور احد ان يخالف المرحوم احمد امين في قضية الغموض الذي يكتنف نشأة النحو العربي . لكن اعتبار كل ما سبق ظهور كتاب سيبويه خرافة بخرافة مبالغة لا سبيل الى التسليم بها نظرا لما في « الكتاب » نفسه من شواهد واسانيد تثبت وجود رعيل من الاساتذة واساتذة الاساتذة ممن نظروا في اللغة . وتكوّن من انظارهم ما اذا لم يكن يصلح مذهبا علميا واضح المعالم والنهج ، فعلى الاقل يصلح لأن يكون النواة لما هو سنة في النشوء والارتقاء ، على حد تعبير صاحب « ضحى الاسلام » .

ولعل ما دعا المرحوم احمد امين الى اعتبار كل ما سبق كتاب سيبويه « حديث خرافة » ، ان ما روي عن وضع النحو لأول مرة مقترن ، في معظم الروايات ، بالتعاريف والتقاسيم المنطقية منسوبة تارة الى الامام علي كرم الله وجهه ، وطورا الى صديقه الدؤلي ، مما يتنافى – وهذا منطقي – وما عرف عن عصرهما وما ساد فيه من علوم . من بساطة وعفوية . لكن مجاراة احمد امين في منطقه الى النهاية يكاد يكون مستحيلا لأسباب ، اهمها :

١ – انه لا سبيل الى انكار ظهور اللحن – وعلى الاخص ما يتعلق منه بظاهرة التصرف الاعرابي – في النصوص المحفوظة او المكتوبة ، وفي طليعتها القرآن الكريم ، كما سبق وبينا في الفصل السابق . ولا بد ان يكون قد استتبع ذلك حركة قامت على النظر في اللغة والسهر على تلقينها – ولا سيما لغير ابنائها من الاعاجم – تلقينا صحيحا يحفظ لها اصولها الموروثة المتواترة كابرا عن كابر . وطبيعي ان يكون قد تحصل من مجموعة الانظار اللغوية ، ومما كان يجيب به المؤدبون وقراء الذكر الحكيم على اسئلة طلابهم حول ظواهر اللغة المختلفة ، ملاحظات وتعليقات اخذ بعضها ينضاف الى بعض ، فتألف منها مع الايام نوع من النظريات اللغوية .

٢ – اجماع كتب الادب واللغة والتراجم على ظهور طبقة من المشتغلين باللغة والنحو – قبل عصر سيبويه – كانت تتصدى للشعراء والادباء وتتعقب هفواتهم وسقطاتهم تبعا لما كانت تعتبره

« القياس » في النحو . كما انهم يحدثوننا عن اشخاص من هذه الطبقة اخذوا يجباون انظارهم في التراث الجاهلي ، ولم يتورعوا عن اتهام الفحول من الشعراء الجاهليين بمخالفة الاصول الاعرابية والقواعد النحوية ، مع ان المنطق يقضي ان يكون النحاة قد سنوا قواعدهم على ما ورد في الاستعمال اللغوي ، لا ان يخضعوا ما جاء على ألسنة ادباء العرب الاولين لقياسهم هم ! وهذا يبين ولا شك ان نوعا من مذهب علمي كان قد نشأ في النحو قبل سيبويه بما لا يقل عن جيلين ، كما سنرى في فصل لاحق .

٣ ـ انه بالرغم من تباين الآراء حول الاسباب والدوافع الى وضع النحو ، وبالرغم من تعدد الروايات عن الواضع الاول له ، فان هناك اجماعا من الرواة على ان اول من « رسم العربية » هو ابو الاسود الدؤلي . ولا نظن ـ كما اراد المرحوم احمد امين ان يستنتج ـ ان مخالفة بعض العلماء لهذا الاجماع ، وقولهم بأن واضع النحو هو عبد الرحمن بن هرمز ، او انه نصر بن عاصم ، يمكن ان يقوما دليلا على خرافية الروايات عن الحقبة ـ أو الحقب ـ السابقة على ظهور كتاب سيبويه . فقد رأينا ان السيرافي ـ وهو من اقدم اصحاب التراجم في هذا الحقل ـ رغم حرصه على الاشارة الى ما قيل من ان الواضع الاول للنحو هو ابن هرمز او ابن عاصم ، وهو حرص يمكن القول عنه انه من قبيل الامانة العلمية ، لم ينس ان يؤكد بأن « اكثر الناس على ان واضع النحو هو ابو الاسود الدؤلي » .

التعريفات والتقسيمات

لنستعرض بعد هذا التعريفات والتقسيمات التي لابست الروايات حول وضع النحو وواضعه الاول ، والتي شكلت بالنسبة الى الباحثين ـ وعلى رأسهم احمد امين ـ قرينة على رفضها واعتبارها منافية لمنطق الامور وطبيعة العصر .

ففي رواية ابي الطيب اللغوي ان عليا كرم لله وجهه اشار على ابي الاسود ان يجعل للناس « حروفا » واشار له الى « الرفع والنصب والجر » . وان ابا الاسود ظل ضنينا بما أخذه من ذلك حتى سمع رجلا يقرأ « ... ان الله بريء من المشركين ورسوله » (بكسر اللام من رسول) فوقر في نفسه ان يصنع شيئا يصلح به «نحو» هذا الرجل (او كلاما هذا معناه) ، فوضع النحو ، وكان أول من رسمه ، فوضع منه « شيئا جليلا » حتى تعمق النظر بعد وطولوا الابواب .

ويخلص ابو الطيب اخيرا الى وصف طريقة ابي الاسود في « نقط » المصحف نقط اعراب ، ويقرر بأن الناس راحوا يختلفون اليه فيتعلمون العربية ، وانه « فرّع » لهم ما كان « اصله » فأخذ ذلك عنه جماعة .

الواقع انه لا شيء من التقسيمات في هذه الرواية ، وكل ما يلفت النظر فيها بعض المصطلحات وهي :

- حروف .
- الرفع والنصب والجر .
- النحو .
- فرّع واصل .

وقبل البحث في هذه المصطلحات ومناقشتها ، لا بد من القول بأنه ليس من المستبعد ان يكون قد دار بين امير المؤمنين علي ابن ابي طالب – وهو من هو في الاسلام وحمل كتاب الله ومعرفة اخفى دقائقه اللغوية – وبين ابي الاسود – وهو من هو في قراءة الكتاب الكريم ، وقد تلقاه عن صاحبه امير المؤمنين ، وفي معرفة العربية وخفاياها وأسرارها – نقول ليس من المستبعد ان يكون قد دار بين الرجلين احاديث ومناقشات عن اجدى الطرق الى تطويق ظاهرة الخطأ الذي كان يقع فيه الناس وهم يؤدون نصوص القرآن الكريم ، وكلاهما عليها غيور ، ولها مقدس . كما انه ليس من

المستغرب ان تدور مثل هذه الاحاديث والمداولات بين الرجلين ، رغم انشغال احدهما او كلاهما في امور السياسة ، ما دامت لا تستغرق من الوقت ما يتطلبه وضع النحو على الصورة التي رسمها لنا الرواة ، اي « مقدمة » (او «اصولا») تحتاج الى تبويب وتفريع .

واشارة الامام على ابي الاسود بأن يجعل للناس « حروفا » ليس فيها كذلك ما يدعو الى العجب سوى ان يكون الرواة قد طبقوا عليها مصطلحات اغلب الظن انها لم تكن معروفة في ذلك الحين ، عنينا قولهم « الرفع والنصب والجر » بدليل ان ابا الاسود حين وضع ما يعرف بنقط القرآن نقط اعراب تكلم بفتح الشفتين وضمهما وكسرهما . واما تفسير بعض الرواة لكلمة الحروف على انها ما نعرفه اليوم بالادوات ، حتى ذهبوا الى ان ابا الاسود وضع حروف النصب : ان ، وليت ، ولعل ، وكأن ، ولم يكن يدري ان « لكن » منها ، حتى نبهه اليها علي كرم الله وجهه ، فلا نظنه الا من قبيل التزيد الذي لا مسوغ له .

واما قول ابي الطيب انه وقر في نفس ابي الاسود ان يصنع شيئا يصلح به « نحو » الرجل الذي لحن في الآية القرآنية ، فنعتقد انه ما استخدم لفظة « النحو » الا لأنها كانت قد شاعت واصبحت مرادفة لهذا العلم من علوم العربية . ولا يسعنا على كل حال الا ان نشكر للرجل دقته المنهجية اذ يقول (او كلاما هذا معناه) ، للتدليل على ان كلمة « النحو » لم تكن قد عرفت او شاعت في زمن أبي الاسود . يؤكد ذلك قوله « وضع منه (أي النحو) شيئا جليلا » الذي ربما قصد به عملية نقط الاعراب المعتبرة بحق عملا رائعا جليلا .

بقي ان قوله « فرّع » لطلابه ما كان « اصله » لا يعني ، في رأينا ، ان يكون ابو الاسود قد وضع « أصول » النحو كما هي معروفة اليوم ، او كما كانت معروفة يوم بدأ التأريخ للنحو والنحاة، وانه راح بعد ذلك يتوسع فيها شرحا وبسطا وبيان علل ، وانما

يعني ان الرجل كان يشير ، وهو يبين لطلابه مذهبه في نقط القرآن ، الى « وظائف » بعض المفردات في اثناء تركيب الكلام ، دون ان نملك دليلا على ان يكون سمى الاشياء بمسمياتها التي نعرفها من « فاعل » و « مفعول » ، و « مضاف اليه » وغير ذلك .

اما رواية السيرافي ففيها اشارتان تتعلقان بنوع من التقسيمات المستغرب صدورها عن واضع النحو الاول . فالاشارة الاولى هي ان ابا الاسود « وضع باب الفاعل والمفعول ، لم يزد عليه » ، والثانية انه « وضع كتابا » بعد ان سمع ابنته تتعجب من حسن السماء فتلحن . وقد سبق لنا ان علقنا على الاشارة الاولى بما لا نرى معه مجالا لزيادة . ونكتفي هنا بالتعليق على الاشارة الثانية فنقول ان الابهام والاطلاق اللذين يرافقان قول السيرافي : «وضع كتابا » ، دون أي تحديد او تعيين ، يدعوان الى الافتراض ان الامر لا يخرج عن ان يكون نوعا من الاجلال لرائد النحو الاول ، اذ ان نسبة « كتاب في النحو » اليه ترفع من شأنه في نظر الاجيال التالية . وقد نذهب من جهة ثانية الى الاعتقاد بأن ما سمي كتابا لا يعدو ان يكون من قبيل الملاحظات التي يسجلها المعلم لتساعده على القاء دروسه ، او يعود اليها عند الحاجة كما تقضي بذلك رسالة التعليم .

ويوغل الزمن قدما فتنضاف الى ما تقدم انواع جديدة من التعريفات والتقسيمات ، وكأن كل مصنف يريد ان يزيد في فضل واضع النحو الاول . فالزبيدي يضيف الى باب الفاعل والمفعول بابا جديدا هو باب « المضاف » ، وفي مكان آخر باب « التعجب » و « غيرها من الابواب » . ويزيد على حروف النصب والرفع والجر حروف « الجزم » . ويتكلم ابن النديم على « اربع اوراق فيها كلام في الفاعل والمفعول » من ابي الاسود بخط تلميذه يحيى بن يعمر . وينسب ابن عساكر اليه كتابا يدعوه « المختصر » .

وكلما تقدم بالرواية الزمن ازدادت الصورة تعقيدا والتفاصيل تحديدا ، حتى ليمكن الشك في ان تكون الاشارات الواردة فيها

مستقاة مما صار اليه علم النحو من تكامل في البناء وتعقيد في المسائل . فهذا ابن الانباري ، ومن بعده القفطي ، يحدثاننا عن امور لا يجد المرء معها مناصا من التصور بأن النحو قد بدأ حقا على الصورة التي نعرفها له من خلال « الكتاب » او من خلال مؤلفات من جاءوا بعد صاحبه . فالرقعة التي دفعها الامام علي الى ابي الاسود تتضمن « تقسيم الكلام » الى اسم وفعل وحرف « جاء لمعنى » . وهو « ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر » وهو « الاسم المبهم » الذي فيه « يتفاضل العلماء » .

وتزداد الابواب عددا ، فيدخل فيها بابا « العطف والنعت » ثم باب « الاستفهام » بعد باب « التعجب » ، فيتذكر المرء ما كان من حكاية ابنة ابي الاسود وخلطها بين اسلوبي التعجب والاستفهام . ويذكر الى جانب ذلك كله نوع محدد من « الحروف » هي ان واخواتها التي تشاء الرواية ان يهمل منها ابو الاسود « لكن » ، لانه « لم يحسبها منها » ثم يعود فيضمها الى الباب ، بعد تنبيه الامام علي الى ذلك !

ابو الاسود رائد النحو

رأينا في الصفحات الماضية اجماع الرواة ــ رغم سوق كل منهم عددا متباينا من الروايات ــ على اولية ابي الاسود في وضع النحو او « رسم العربية » . ونقول هنا انه سواء أصحت الاقوال عن « ابواب » (او كتاب) وضعها الدؤلي ، أم لم تصح ، فان ما لا جدال فيه انه قام بضبط المصحف بالشكل ضبطا نعرفه اليوم باسم « نقط الاعراب » ، ولا فرق في ان يكون قد فعل ذلك بدافع شخصي محض او بايحاء من أحد ، كالامام علي كرم الله وجهه ، او زياد بن ابيه ، او غيرهما . وهذا العمل بالذات هو في اساس الاجماع على كونه رائد النحو دون مدافع ، حتى من قبل اولئك القائلين بنسبة النحو الى علي بن ابي طالب . فنقط المصحف نقط اعراب« اعود على حفظ النصوص من حدود النحو » ، وربما كان

اعظم خدمة قدمت للعربية حتى الآن » (١) .

وحتى احمد امين الذي كفر بكل ما جاء عن وضع النحو واسباب نشأته ، والذي ابى ان يعترف بما جاء في اثناء ذلك من تقسيمات وتفريعات لا يمكن ان تتواءم وعصر ابي الاسود ، لم يملك الا ان يعترف ضمنا لأبي الاسود بأنه الواضع الاول ، حين فسر قولهم بأن أبا الاسود أول من وضع العربية ، بأنهم « يعنون بالعربية هذه العلامات التي تدل على الرفع والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون ، والتي استعملها ابو الاسود في المصحف ، وان هذه الامور لما توسع العلماء فيها بعد ، وسموا كلامهم نحواً ، سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من ابي الاسود ، وقالوا انه واضع النحو ، للشبه في الاساس بين ما صنع وما صنعوا . وربما لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتا » (٢) .

واذا كنا قد اكتفينا بنسبة أولية النحو الى ابي الاسود على اساس نقطه المصحف نقط اعراب ، فان هناك من ذهب الى أبعد من ذلك ، وحاول ان ينسب الى الرجل منهجا قائما على الاستنباط والشرح والتعليل . ففي رأي الدكتور مازن المبارك (٣) ان ابا الاسود « استنبط من كلام العرب ضوابط ثابتة كانت اساس عمله في توزيع الرفع والنصب والجر . والا فعلى أي اساس عمل ؟ » . وعمله هذا لم يكن وليد سليقة كالتي عرفت للاعراب الذين كانوا يرفعون وينصبون ويجرون ولا يعرفون لذلك تعليلا ، والا « فأي شيء كان يعلم ؟ » . وقد كان يعلم العربية ، واختلف اليه الناس يتعلمونها منه ، وكان أبرع اصحابه ميمون الاقرن ، ونسب اليه كتاب « المختصر » ، فأي شيء وضع في هذا الكتاب « ان لم يكن وضع شرحا ما متصلا بعمله في وضع الشكل وتوزيع الحركات ؟ ثم ان لم يكن فيما يعمله ابو الاسود ويصنعه قواعد واستنباطات ، ففي

---

(١) في اصول النحو ، ص ١٦١ .
(٢) ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ .
(٣) النحو العربي ، ص ٣٢ .

اي شيء فاق تلميذه عنبسة (او ميمون) سائر تلاميذه ؟ » .

ويرد الدكتور المبارك على من يحاولون نفي الروايات عن اولية وضع النحو واعتبارها ضربا من الخرافة ، بأن استبعاد صدور التقسيمات المنطقية والتبويبات الدقيقة على نحو ما أوردها ابن الانباري أمر ممكن ، ولكنه لا يؤدي بالضرورة الى انكار الخبر اصلا او نفيه كلية . ثم يخلص الى القول (١) بأن ابا الاسود هو أول معلم للنحو وصل الينا خبره باعتبار ما كان من وضع الضوابط ، وهي اللبنة الاولى في بناء النحو العربي تمت على يديه .

والحق انه ما دامت كتب التراجم تؤكد لنا ان ابا الاسود كان يعلم الناس العربية ، وانه كان له تلاميذ معروفون كما سنرى في الفصل القادم ، وانه أول من رسم العربية ،فانه لا يسعنا ، اذا لم نعتبره واضع النحو بالمفهوم الحديث للكلمة ، الا ان نعتبره اول من فتح باب النظر فيه (وربما باب التأليف ايضا) ، لفوج من الطلاب استرشدوا بآرائه واستناروا بنهجه ، وكانوا بدورهم اساتذة لرعيل جديد ندخل معهم للمرة الاولى دائرة التاريخ الصحيح ، كما يقول بروكلمان .

طريقة نقط المصحف

جاء في « اخبار النحويين البصريين » (٢) ان ابا الاسود بعد ان استعفى زيادا ما أمره به من ان يجعل للناس ما ينتفعون به ويعربون كتاب الله ، عاد اليه بعد ان سمع اللحن في الآية الكريمة « ... ان الله بريء من المشركين ورسوله » ، فقال له : انا افعل ما امر به الامير . فليبغني كاتبا لقنا يفعل ما اقول . فاتي بكاتب من عبد القيس فلم يرضه . فأتي بآخر (قال ابو العباس «المبرد» احسبه منهم) ، فقال له ابو الاسود : اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف

(١) نفسه ، ص ٣٩ .
(٢) ص ١٦ .

فانقطه فوقه على اعلاه ، فان ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وان كسرت ، فاجعل النقطة تحت الحرف . فان اتبعت شيئا من ذلك غنة ، فاجعل مكان النقطة نقطتين . فهذا نقط ابي الاسود .

رمز ابو الاسود اذن الى ما نعرفه اليوم بالفتحة بنقطة فوق الحرف ، والى الضمة بنقطة بين يدي الحرف ، أي الى جانبه دون ان تكون النقطة على أعلى الحرف كما بالنسبة الى الفتحة ، والى الكسرة بنقطة أسفل الحرف . اما الحروف الساكنة فيبدو من الوصف اعلاه انها تركت مهملة بلا نقط ، وهذا طبيعي ومنطقي . واما التنوين ، وقد سمي في الوصف « غنة » ، فيرمز اليه بنقطتين بدلا من واحدة .

ولا بد من الاشارة الى انه لم تكن الحروف في عهد ابي الاسود معجمة، ولذا لم يكن هناك من خوف على ان تختلط النقط المستعملة لبيان اصوات الحروف ضما وفتحا وكسرا وتنوينا ، بتلك النقط التي نعرفها اليوم للتمييز بين الحروف المتشابهة كالجيم والخاء مثلا ، والمعروفة باسم نقط الاعجام .

وقد عرف عمل ابي الاسود هذا باسم « رسم العربية » ، وهو ما فسر خطأ بأن ابا الاسود قد رسم النحو العربي او شيئا من ابوابه التي نعرفها اليوم . بينما هو في الحقيقة لم يزد على ان وضع الضوابط التي تؤمن اعراب القرآن الكريم كما حفظه متواترا عن صحابة النبي عليه الصلاة والسلام ، وعلى رأسهم الامام علي كرم الله وجهه .

مناقشة الروايات عن « رسم العربية »

بقي ان نقول كلمة في اهم ما لابس « رسم العربية » ـ او اول المعالم على طريق النحو العربي ـ من تفسيرا تٍوتزيدات تبلغ احيانا حد الخيال . ونبدأ اولا باشارة الامام على ابي الاسود بأن يجعل

للناس حروفا للرفع والنصب والجر ، فنقول بأنها اقرب الروايات الى المنطق وطبيعة الاشياء ، باعتبار توافق تلــك « الاشارة » او « المشورة » وصنيع ابي الاسود في نقط المصحف نقطا يبين حركات اواخر الكلم من رفع ونصب وجر . ولكن الحذر كل الحذر مــن توسع الروايات ــ ولا سيما المتأخر منها في الزمن ــ في تأويل كلمة « حروف » . حتى ليصبح ابو الاسود واضعا للحروف المشبهة بالفعل (ان واخواتها ، مع اغفال « لكن » وتنبيه الامام الى ضرورة ضمها الى الباب) ، ولحروف الجر ، ولحروف الجزم وغيرها ، ويصبح بالتالي واضع النحو بالمفهوم الذي نعرفه اليوم ، ويكــون الامام استاذه في ذلك ، وبطريقة غير مباشرة احيانا ، واضــع النحو الاول .

وهناك ثانيا طلب زياد بن ابيه الى ابي الاسود ان يعمل للناس ما به ينتفعون ويعرب بــه كتاب الله ، واستعفاء ابي الاسود ، حتى يكون يوم يسمع فيه لحنا في آية قرآنية فيهرع الى الامير عادلا عن استعفائه . فالمرء لا يسعه الا ان يتساءل امام هذه الرواية عما حمل ابا الاسود على « الاستعفاء » عن تلبية طلب كهذا رغــم جــلال الدافع اليه . أفلم يكن ابو الاسود من قراء الذكر الحكيم ، وحريصا كل الحرص على اداء نصوصه اداء لا يأتيه الباطل ؟ بلى ، ولا ريب . فكيف يعقل اذن ان يرفض القيام بعمل يكفل لكتاب الله مثــل هذا الاداء ، ويدفع عنه باطل اللحن ؟

الحق ان الجواب الشافي عن هذه الاسئلة لا يكون الا في ان ابا الاسود تهيب ان يخط في المصحف ما لم يكن مدونا فيه ، خشية ان يكون في صنيعه ما يمس « قدسية » النص الشريف ، وان يكون تهيبه مماثلا لتهيب ابي بكر رضي الله عنه ، حين اشار عليه اصحابه بتدوين القرآن ، رهبة الاقدام على ما لم ير الرسول عليه الصلاة والسلام يقوم به . ولنا دليل على ذلك في ما قاله ابن الجزري (١)

---

(١) النشر في القراءات العشر ، ج ١ ، ص ٧ .

من ان المصاحف حين كتبت « جردت جميعها من النقط والشكل ليحتملها ما صح نقله وثبتت تلاوته عن النبي صلى الله عليه وسلم ، اذ كان الاعتماد على الحفظ لا على مجرد الخط » وان (١) « الصحابة رضي الله عنهم لما كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العرضة الاخيرة مما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم . وانما اخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين ، شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين . فان الصحابة رضوان الله عليهم تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمره الله تعالى بتبليغه اليهم من القرآن ، لفظه ومعناه جميعا ، ولم يكونوا ليسقطوا شيئا من القرآن الثابت عنه صلى الله عليه وسلم ، ولا يمنعوا من القراءة به » .

وقد جاء في «كتاب المصاحف» (٢) لابن ابي داود السجستاني: « حدثنا عبدالله ، حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد ، حدثنا شعبة عن ابي رجاء ، قال : سألت محمد بن سيرين عن المصحف ينقط بالنحو (٣) ، قال : اخشى ان يزيدوا في الحروف » .

فاستعفاء ابي الاسود قد يكون مرده مثل هذه الخشية من الزيادة في الحروف ، فيدخل على النص الشريف ما ليس من الوحي . اما عودته عن رأيه ، وعدوله عن استعفائه ، فلا بد ان يكون الدافع اليهما رجاء المثوبة على صون كلام الله عز وجل من شوائب اللحن ، سواء كان ما سمعه منه « لا يأكله الا الخاطئين » او « . . ان الله بريء من المشركين ورسوله » ، وهذه الاخيرة حجة اقوى في رأي الرواة من الآية الاولى ، لأن اللحن فيها يقود الى الضلال . ولا شك ان رجاء الثواب ذلك تغلب على التهيب والرهبة ، كما كان

---

(١) نفسه ، ص ٣٣ .
(٢) ص ١٤١ .
(٣) اشارة الى شكل اواخر الكلمات وربما بطريقة ابي الاسود في النقط او بالطريقة التي نعرفها اليوم

الخوف من ضياع النص القرآني المجيد اقوى في نفس الصدّيق رضي الله عنه من رهبة الاقدام على ما لم يقدم عليه الرسول نفسه

وهناك ثالثا طلب زياد من ابي الاسود ان يرسم لبنيه رسما لا يلحنون معه في القرآن ، فكان نقط المصحف . أو قوله له (١) : « ان الظئر والحشم قد أفسدوا ألسنتهم فلو وضعت لهم كلاما ، فوضع العربية » . وهذه الرواية وثيقة الصلة بسابقتها في شطرها الاول ، لانها مثلها تربط بين صنيع ابي الاسود في نقط المصحف وبين صون نصه الكريم من اللحن . لكنها تختلف عنها في انها اكثر تخصصيا . فالاولى تريد ان ينتفع « الناس » بما يضعه لهم ابو الاسود ، بينما تقصر الثانية النفع على « ابناء » زياد وحدهم .

اما الشطر الثاني من الرواية فيميل الى جعل ابـي الاسود « مؤلفا » في العربية (او في النحو) ، لا مجرد واضع لرموز الاعراب وحسب ، لان المطلوب منه هو ان يضعلابناء زياد « كلاما » في العربية ، أي « قواعد » يسترشدون بها الى الصواب ويتلافون على هديها اللحن .

واذا كنا لا نستبعد ان يكون زياد قد عرض على ابي الاسود مشكلة ابنائه اللغوية وحدد اسبابها في انهم ربوا في بيئة اعجمية مغلقة ، وان يكون طلب اليه ، وهو من المهتمين باللغة وتلقينها واقراء الناس القرآن الكريم ، ان يأخذ بيد هؤلاء الابناء لتقويم ألسنتهم « المستعجمة » ، فانه لا يسعنا التسليم بأن يكون قد خطر في باله ان يضع ابو الاسود لهم نظريات وقواعد في اللغة العربية . ولا نظن هذا التزيد في الرواية الا من قبيل محاولة الرواة دعم ما قالوا به في نسبة « صحيفة » او « ابواب » او « كتاب » في العربية الى ابي الاسود .

---

(١) انباه الرواه ، ج ١ ، ص ١٦ .

وهناك رابعا طلب ابي الاسود الى زياد (او الى ابنه عبيد الله) ان يسمح له بوضع النحو ، ورفض زياد الطلب ، حتى كان ان جاءه رجل فقال : اصلح الله الامير ، توفي «ابانا» وترك «بنوه» (او «بنون» ، او «بنونا») ، فأمر ابا الاسود ان يضع للناس ما كان نهاه ان يضع لهم (١) .

وغرابة هذه الرواية كامنة ، ولا ريب ، في ان «يضطر» ابو الاسود الى استئذان زياد في وضع النحو ، ان كان قد فكر في شيء من هذا القبيل طبعا ، او ان كان عمله لم يقتصر فقط على « رسم العربية » ، دون كل ما نسب اليه من تأليف فيها . فأبو الاسود كان ايام علي رضي الله عنه واليا على البصرة ، في حين كان زياد نفسه على الديوان والخراج ، وقد قيل بأن هذا الاخير كان يسبع (أي يطعن) ابا الاسود عند علي (٢) . ولا نظن ان يضطر ابو الاسود – وقد افل نجمه بأفول خلافة علي ، وعلا نجم زياد باقبال الخلافة على معاوية – الى استئذان خصمه في شأن لا يمت الى السياسة بصلة .

وقد روي ان ابا الاسود كان يعلم ابناء زياد (٣) . واذا كان قد شعر بالحاجة الماسة الى وضع ما يساعده على تعليم هؤلاء الابناء ويعود بالنفع عليهم وعلى رسالته ، فلماذا يستأذن في وضعه ، وليس فيه ما يلحق الاذى بالحاكم ، ولا يشكل خطرا او تهديدا لاداة الحكم؟ ثم الا يشتم المرء وهو يطالع سبب عودة زياد عن رايه في نهي ابي الاسود عن « وضع النحو » كثيرا من الروائية ، ولا سيما في الشكل المبتور الذي جاءت عليه ؟

اما ان يكون عبيد الله بن زياد هو الذي رفض السماح لابي

---

(١) اخبار النحويين البصريين ، ص ١٧ . وقد اقتصر الخبر على زياد وحده في طبقات الزبيدي ، ص ٢٢ ، وانباه الرواه ، ج ١ ، ص ١٥ ، ومعجم الادباء ، ج ١٢ ، ص ٣٤ .
(٢) انباه الرواه ، ج ١ ، ص ١٨ .
(٣) معجم الادباء ، ج ١٢ ، ص ٣٤ .

الاسود بوضع النحو ، فأمر من الهشاشة بحيث يتهافت امام ادنى حجة وابسط نقاش . فالمفروض في عبيد الله انه « تلميذ » ابي الاسود . وما علمنا ان المعلم كان يوما بحاجة الى استئذان تلميذه حتى وان اصبح هذا التلميذ حاكما . ومفروض فيه كذلك انه لم يكن من الفصاحة واتقان لسان العرب بالمنزلة التي كان فيها ابوه زياد ، فكيف يعقل ان يكون قد ادرك ما وقع فيه الشاكي من خطأ وهو ينصب الفاعل ويرفع المفعول رفع جمع المذكر السالم ، او ينونه تنوين نصب بعد ان زوده بالواو علامة رفع هذا الجمع (بنونا)، ليعدل عن رأيه في نهي ابي الاسود عن وضع النحو ، ويفزع اليه ان يفعل مستهولا شناعة ما سمع من لحن ؟ ثم ان ابا الاسود كان قد بلغ من الكبر عتيا حين ولي عبيد الله البصرة (١) ، ومفروض فيه ان يكون قد وضع ما وضع ، او بالاحرى صنع ما صنع ، قبل تولي عبيد الله الحكم بكثير .

وهناك خامسا قول ابي الاسود لعبدالله بن عباس (٢) ان السنة العرب قد فسدت ، وانه يريد ان يضع لهم شيئا يقوّمون به السنتهم ، وجواب ابن عباس « لعلك تريد النحو . اما انه حق ، واستعن بسورة يوسف » (٣) .

وغرابة هذه الرواية من وجوه :

اولا — اظهارها ابا الاسود مظهر المتردد المنتظر اجازة الوالي لوضع النحو ، مع ان مكانته المرموقة النابعة من كونه قاضيا لابن

(١) ولي عبيد الله البصرة في خلافة يزيد بن معاوية سنة ٦٠ هـ . وقد توفي ابو الاسود سنة ٦٩ هـ وهو ابن خمس وثمانين سنة ، فتكون سنه اذن عند ولاية عبيد الله ستا وسبعين سنة .

(٢) ولي ابن عباس البصرة لعلي بن ابي طالب ، وولي له ابو الاسود القضاء فيها، واستخلفه ابن عباس عليها حين خرج الى الحكمين في شهر ربيع الاول سنة ٣٨ هـ . وقد وجه علي يومها بابن عباس في اربعمائة رجل ، وانفذ معاوية اربعمائة رجل من اصحابه ، واجتمعوا كلهم بدومة الجندل . (تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٩٠) .

(٣) انباه الرواه ، ج ١ ، ص ١٦ .

عباس ونائبا له يوم خرج للتحكيم ، تكفيه مؤونة الترخيص بأمر فيه الخير كل الخير .

ثانيا ــ تناقضها مع سابقاتها القائلات بطلب الترخيص بوضع النحو من زياد او ابنه عبيد الله . فما دام ابن عباس قد اجازه قبلهما ورخص له وباركه ، فلماذا يعود بعد عدة سنوات الى تجديد الطلب وانتظار الاذن من الوالي الجديد ؟ ولماذا يريدون الا يكون قد وضع شيئا من النحو قبل ذلك ؟

ثالثا ــ الافتعال المتمثل في قول ابن عباس «لعلك تريد النحو» . فكيف يمكن ان يكون الرجل قد ادرك قصد صديقه بكل هذه البساطة ، مع ان المفروض انه لم يكن النحو معروفا قبل ابي الاسود ؟ واذا كان معروفا فما حاجة ابي الاسود الى رسمه ووضع حدوده ؟

رابعا ــ حض ابن عباس ابا الاسود على الاستعانة بسورة يوسف . فلماذا اختارها من دون سائر كلام الله ؟ أيكون قد قصد من وراء ذلك ان يتخذ ابو الاسود من بعض آياتها الكريمة مثل « ولنعلمه من تأويل الاحاديث » (الآية ٢١) ، او « ولا نضيع اجر من احسن عملا » (الآية ٥٦) ، او « عليه فليتوكل المتوكلون » (الآية ٦٧) ، او « وفوق كل ذي علم عليم » (الآية ٧٦) ، شعارا ورائدا ؟ الله اعلم بذلك .

وهناك سادسا الراي القائل باندفاع ابي الاسود من تلقائه الى وضع النحو ، بعد سماع لحن سعد الفارسي (فرسي ضالع) ، او لحن الذي قرأ « ورسوله » (بكسر اللام) ، أو لحن ابنته لدى تعجبها من حسن السماء او من شدة الحر ، وقد فصلنا القول على كل منها في الفصل السابق ، ونزيد هنا بأن حسنة هذه الرواية انها تجعل من ابي الاسود متطوعا للنظر في أمر اللغة وتعفيه من الاستئذان للقيام بعمل هو من صميم اختصاصه .

ثم هناك اخيرا ما حدّث به ابو الحسن المدائني عن عباد بن مسلم عن الشعبي انه قال : « كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى ابي موسى : اما بعد ، فتفقهوا في الدين ، وتعلموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرية (ما يتعلم عليه الطعن) ، واحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم ابو الاسود اهل البصرة الاعراب » (١) .

ولعل هذه الرواية ان تكون اغرب الروايات جميعا . فكيف يعقل ان نصدق ان يحض الخليفة الثاني على تفهم العربية على وجه الاطلاق ، ثم يعود فيأمر بتعلم احد فروعها ، عنينا الاعراب ، بعد وصيتين لا علاقة لهما من قريب او بعيد باللغة ؟ ثم لماذا يخص الخليفة مصرا بعينه بمثل هذه الوصية ، ولا يبعث الى كل الامصار التي مصرها العرب ، مسميا من يعلم الناس الاعراب فيها ؟ أيكون اهل البصرة وحدهم ، ومن دون سائر العرب في مواطنهم الجديدة بحاجة الى مثل هذا النوع من العلم ؟ أتكون الامة العربية من القحط في الرجال العارفين باللغة ، الملمين بدقائقها وخصائصها ، بحيث لا يكون فيها سوى ابي الاسود ؟

لعمري ان المرء لا يتمالك ان يدهش امام هذه الرواية ، ولا يملك الا ان يتساءل عما اذا لم تكن الوصية الاخيرة المتعلقة بتعليم ابي الاسود اهل البصرة الاعراب قد اضيفت الى سائر الوصايا العمرية ، تعظيما من الرواة لشأن ابي الاسود ، وحجة ارادوها قاطعة على اثبات اوليته في وضع « العربية » او « رسم حدود الاعراب » او بالاختصار وضع « النحو » .

كلمة اخيرة في ختام هذا الفصل ، وهي انه ، الى جانب الحقيقة العلمية الوحيدة التي يمكن الركون اليها في المرحلة الاولى لنشأة النحو العربي ، حقيقة كون الدؤلي واضع « نقط الاعراب »

---

(١) انباه الرواه ، ج ١ ، ص ١٦ .

الذي اعتبر على اساسه الواضع الاول للنحو ، هناك حقيقة اخرى ، هي انه تخرّج بأبي الاسود فوج من الطلبة اخذوا عنه قراءة القرآن الكريم ، وتعلموا على يديه طريقته في نقط المصاحف نقط اعراب ، واصبحوا بدورهم اساتذة لفوج جديد يعتبرون بحق مؤسسي النحو العربي .

تلاميذ الدؤلي هؤلاء هم مدار بحثنا في الفصل القادم .

الفصل الرابع

تلاميذ ابي الاسود

لا يمكن الزعم بأن البحث في مرحلة تلاميذ ابي الاسود سيكون اقل عسرا من البحث في المرحلة التي سبقتها . ذلك ان القليل الذي نعرفه عنهم لا يفسح المجال امام الباحث لالقاء بعض الضوء على ما قدموه بين يدي النحو من خدمات . فالروايات تكاد تجمع على انه اخذ عن ابي الاسود نفر من التلاميذ « تتفاوت مقاديرهم في العلم بهذا النوع من العربية » (١) (المقصود النحو طبعا) . ويذهب بعضها الى اشراك اثنين من هؤلاء التلاميذ ، هما ابن هرمز وابن عاصم ، مع الدؤلي في وضع النحو .

وامام هذا الغموض الذي لا يقل عن ذاك الذي يلف مرحلة ابي الاسود ، سنحاول في هذا الفصل ان نستنتج من خلال تراجم هؤلاء التلاميذ ، ما يمكن ان يكونوا قد فعلوه في ميدان « العربية » . ولذا رأينا ان نقدم اولا ترجمة لكل منهم تبعا لأهم ما جاء في كتب الطبقات .

اولا ـ عبد الرحمن بن هرمز

بعد ان اشار السيرافي (٢) الى اختلاف الناس في الكلام على اول واضع للنحو ، وهل هو ابو الاسود او نصر بن عاصم او عبد

(١) انباه الرواه ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ .
(٢) اخبار النحويين البصريين ، ص ٢٢ .

الرحمن بن هرمز ، عاد فقال في ترجمة هذا الاخير انه « اول من وضع العربية » وانه « كان أعلم الناس بأنساب قريش » وانه « احد القراء » .

اما الزبيدي (١) ، فقد جعله « من اول من وضع العربية » . وزاد على كونه كان اعلم الناس بأنساب قريش ، انه « من أعلم الناس بالنحو » وانه « مدني » ، وان الامام مالكا « اختلف اليه عدة سنين في علم لم يبثه في الناس ، يرون ان ذلك من علم اصول الدين وما يرد به مقالة اهل الزيغ والضلالة » .

واما القفطي (٢) ، فقد بين السبب الذي من اجله قيل ان ابن هرمز هو من اول من وضع العربية ، وذلك انه « اخذ عن ابي الاسود » . وزاد على ما جاء في اقوال من تقدموه عن ابن هرمز ، ان هذا الاخير كان « اول من أظهر هذا العلم بالمدينة » وانه « ما أخذ اهل المدينة النحو الا منه » ، وان الامام مالكا « تردد اليه لطلب النحو واللغة قبل اظهارهما » .

هذا ، وابن هرمز هو ابو داود الاعرج مولى محمد بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وقد توفي بالاسكندرية ودفن بها سنة ١١٧ هـ .

ثانيا ـ نصر بن عاصم (الدؤلي) او (الليثي)

يقول عنه السيرافي (٣) انه « اول من وضع العربية » (٤) ، وانه « كان يقرأ : قل هو الله احد الله الصمد ، فلا ينون كلمة (احد) ، فتابعه فيها عبد الله بن ابي اسحاق » ، وانه احد القراء

---

(١) الطبقات ، ص ٢٦ .
(٢) انباه الرواه ، ج ٢ ، ص ١٧٢ ــ ١٧٣ .
(٣) اخبار النحويين البصريين ، ص ٢٠ ــ ٢١ .
(٤) يلاحظ ان السيرافي اضطر الى القول عن كل من ابي الاسود وابن هرمز وابن عاصم « انه اول من وضع العربية » ، انسجاما منه مع نفسه في القول عن اختلاف الناس في الكلام على اول من وضع النحو .

الفصحاء ،اخذ عنه ابو عمرو بن العلاء والناس » ، وان الزهري قال عنه « انه ليفلق بالعربية تفليقا » .

وزاد الزبيدي (١) على ما تقدم ان ابن سلام (٢) « ذكر ان نصرا اخذ عن يحيى بن يعمر » . (هذا الاخير احد تلامذة ابي الاسود وستأتي ترجمته بعد قليل) .

ويقول عنه القفطي (٢) ، انه « اول العلماء في النحو ، وانه « اول من وضع النحو وسببه ، واول من اخذه عن ابي الاسود وفتق فيه القياس » ، وانه « كان انبل من اخذ عن ابي الاسود فنسب اليه » (لذا يقال الدؤلي) ، وانه « احد القراء الفصحاء ، اخذ عنه ابو عمرو بن العلاء وعبدالله بن ابي اسحاق » .

وقال ياقوت (٣) عن نصر انه « كان يسند الى ابي الاسود في القرآن والنحو ، وله كتاب في العربية » .

وقد كانت وفاة نصر بن عاصم بالبصرة عام ٨٩ (او ٩٠) هـ .

ثالثا ـ عنبسة بن معدان المعروف بـ « الفيل » (٤)

يقول السيرافي (٥) نقلا عن المبرد عن ابي عبيدة (٦) « اختلف الناس الى ابي الاسود يتعلمون منه العربية ، فكان ابرع اصحابه عنبسة بن معدان المهري . واختلف الناس الى عنبسة فكان البارع

(١) الطبقات ، ص ٢٧ .
(٢) انباه الرواه ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ .
(٣) معجم الادباء ، ج ١٩ ، ص ٢٤٤ .
(٤) جاء في سبب هذه التسمية ان معدان (ابا عنبسة) ، وهو رجل من اهل ميسان قدم البصرة واقام بها ، وكان لعبد الله بن عامر (امير مشهور له فتوح مهمة ، مات عام ٥٩ هـ) فيل بالبصرة فاستكثر النفقة عليه ، فأتاه معدان فتقبل الفيل بنفقته وفضل في كل شهر ، فكان يدعى معدان الفيل . (اخبار النحويين البصريين ، ص ٢٤) .
(٥) اخبار النحويين البصريين ، ص ٢٤ ـ ٢٥ .
(٦) هو معمر بن المثنى ، وكان من اعلم الناس بأيام العرب واخبارها ، توفي عام ٢٠١ او ٢١٠ هـ .

من اصحابه ميمون الاقرن » . وينقل عن عمر بن شبة عن التوزي عن ابي عبيدة ان « اول من وضع العربية ابو الاسود الديلي ، ثم ميمون الاقرن ، ثم عنبسة الفيل ثم عبدالله بن ابي اسحاق . ففي هذه الحكاية ميمون قبل عنبسة ، وفي الحكاية التي قبلها عنبسة قبل ميمون » .

ولم يزد الزبيدي (١) على ما تقدم شيئا .

وكل ما زاده القفطي (٢) ان عنبسة « من الطبقة الثالثة » على اعتبار انه اخذ عن ابي الاسود الذي اخذ عن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ، وان هذه الطبقة ، حسب ما حصر الرواة ، هم ممن أخذ عن ابي الاسود ، وتتفاوت مقاديرهم في هذا النوع من العربية.

واكد ياقوت (٣) ان عنبسة « اخذ النحو عن ابي الاسود ، ولم يكن فيمن اخذ النحو عنه ابرع منه » .

هذا ولم نقف على تاريخ وفاة عنبسة ، ولكن يمكن التقدير بأنها كانت حول المائة الاولى للهجرة نظرا لانه عاصر الفرزدق الشاعر .

رابعا ـ ميمون الأقرن

لم يذكر السيرافي ولا الزبيدي في ترجمته سوى انه (او عنبسة) ابرع من اخذ النحو عن الدؤلي . وزاد القفطي (٤) ان ابا عبيدة كان يقدم ميمونا على عنبسة في الاخذ عن ابي الاسود ، ثم علل خلط الرواة في تقديم الواحد على الآخر بأن عصرا واحدا كان يجمعهما ورفاقهما .

اما ياقوت (٥) فيعتبر ميمونا « الامام المقدم في العربية بعد

---

(١) الطبقات ، ص ٢٩ .
(٢) انباه الرواه ، ج٢ ، ص ٣٨٢ .
(٣) معجم الادباء ، ج ١٦ ، ص ١٣٣ .
(٤) انباه الرواه ، ج ٣ ، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .
(٥) معجم الادباء ، ج ١٩ ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

ابي الاسود » ، ويقول بانه « اخذ عن ابي الاسود » واخذ عنه عنبسة بن معدان الفيل في اصح الروايتين » . ثم ينقل عن اسحاق بن ابراهيم الموصلي عن المدائني قوله « امر زياد ابا الاسود ان ينقط المصاحف فنقطها ورسم من النحو رسوما ، ثم جاء بعده ميمون فزاد عليه في حدود العربية ، ثم زاد فيها بعده عنبسة » . ويقول عنه كذلك « كان احد ائمة العربية الخمسة (هو ، وعنبسة الفيل ، وعبدالله بن ابي اسحاق الحضرمي ، وابو عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر الثقفي) الذين يرجع اليهم في المشكلات » .

ولم نقف على تاريخ وفاة ميمون في اي من كتب التراجم التي رجعنا اليها .

خامسا ـ يحيى بن يعمر (١)

قال السيرافي (٢) « يقال ان ابا الاسود لما وضع باب الفاعل والمفعول ، زاد في ذلك الكتاب رجل من بني ليث ابوابا ، ثم نظر فاذا في كلام العرب ما لا يدخل فيه ، فأقصر عنه . فيمكن ان يكون الرجل الذي من بني ليث ، يحيى بن يعمر » . ثم اورد قصته مع الحجاج في لحنه في احدى الآيات القرآنية .

وقال الزبيدي (٣) انه « اخذ عن ابي الاسود » وانه « كان فصيحا عالما بالغريب ، ومن القراء » ، وانه « روى خالد الحذّاء قال : كان لابن سيرين مصحف منقوط ، نقطه يحيى بن يعمر » . وحدد تاريخ وفاته بسنة ١٢٩ هـ (٤) .

---

(١) ضبطه السيرافي والزبيدي بفتح الياء وضم الميم ، وابن خلكان والقفطي بفتح الياء والميم كليهما .

(٢) اخبار النحويين البصريين ، ص ٢٢–٢٣ .

(٣) الطبقات ، ص ٢٧–٢٨–٢٩ .

(٤) نشك في صحة هذا التاريخ لان وفاة ابي الاسود كانت عام ٦٩ هـ ، فيكون بين وفاة الرجلين فارق زمني قدره ستون عاما . وهذا لا يسمح بأن يكون يحيى ممن اخذوا عن ابي الاسود . هذا وقد ذكر ان نصر بن عاصم المتوفى عام ٨٩ او ٩٠ هـ اخذ عن يحيى بن يعمر ، فيكون الاستاذ قد مات بعد تلميذه بأربعين سنة ، وهو امر بعيد عن المنطق . ونشير الى ان بعض المراجع حدد وفاة يحيى بعام ٨٣ هـ وهو أقرب الى الصواب .

سادسا ــ عطاء بن ابي الاسود الدؤلي

لم يذكره السيرافي ولا الزبيدي في النحويين . لكن القفطي (١) ترجم له قائلا انــه « عالم بالنحو والعربية » وانه « اتفق بعد موت ابيه مع يحيى بن يعمر علــى بسط النحــو وتعيين ابوابه وبعــج مقاييسه » ، وانهما « لما استوفيا جزءا متوافرا من ابواب النحو ، نسب بعض الرواة اليهما انهما اول من وضع هذا النحو . »

سابعا ــ حرّ بن عبد الرحمن النحوي القاريء

لم نعثر لهذا الرجل على ترجمة في اي من كتب المتقدمين . لكن السيوطي ترجم له في بغية الوعاة (٢) قائلا بأنــه « سمــع ابا الاسود الدؤلي ، وعنه طلب اعــراب القرآن اربعين سنــة ، ذكره الداني » .



ما الذي يمكن استخلاصه من كل ما تقدم ؟

١ ــ ان جميع المشتغلين بالنحو من تلامذة ابي الاسود كانوا من قراء الذكر الحكيم ، وبالتالي من مقرئيه ، اي انهم كانوا بدورهم معلمين حين شبوا عن الطوق واخذوا بذلك اجازة من استاذهم . ولا بد ان يكونوا على هذا الاساس قد عانوا ما عاناه ذاك الاستاذ من مواجهات ومجابهات لغوية مع طلابهم ، وان تكون قد اعترضتهم كما اعترضته من قبل « مشكلات » حاولوا حل بعضها على ضوء مــا تعلموه من الدؤلي ، ونظروا في بعضها الآخر نظرات جديدة ، فتكونت لديهم ملاحظات واستنتاجات اضافوها الى ملاحظاته واستنتاجاته. (لنذكر مثلا اختيار نصر بن عاصم قراءة كلمة « احد » مــن غير تنوين) .

---

(١) راجع هامش رقم ٣ في الصفحة السابقة .
(٢) ج ١ ، ص ٤٩٣ .

٢ ـ ان « نحاة » هذه المرحلة خطوا خطوات كبيرة في مناقشة الظواهر العربية وتبادل وجهات النظر فيها وتدبر خفاياها واسرارها . (لنذكر ما قيل عن نصر بن عاصم من انه كان يفلق بالعربية تفليقا دلالة على انه كان يجيب فيها بالاجابات المعجبة التي تنم عن غوص وتعمق . ولنذكر كذلك ما قيل عن ميمون الاقرن من انه كان احد ائمة العربية الذين يرجع اليهم في المشكلات .)

٣ ـ انه ربما قامت محاولات للتأليف في النحو ، من مثل اقدام يحيى بن يعمر على زيادة «ابواب» على ابواب الدؤلي ، ثم تراجعه عن ذلك بعد ان اتضح له ان « في كلام العرب ما لا يدخل » في ما حاول وضعه ؛ او من مثل ما نسب الى عطاء بن ابي الاسود ويحيى بن يعمر من استيفائهما « جزءا متوافرا من ابواب النحو » ؛ او ما نسب الى نصر بن عاصم من انه كان « له كتاب في العربية » ، والى ميمون الاقرن من انه زاد على ابي الاسود في « حدود العربية » ، والى عنبسة الفيل من انه زاد في « حدود » ميمون ، وغير ذلك .

٤ ـ ترسيخ طريقة ابي الاسود في نقط الاعراب لبيان حركة اواخر الكلمات وحركات الحروف التي في حشوها بدليل ما جاء عن مصحف ابن سيرين الذي نقطه له يحيى بن يعمر .

وقد اضاف هؤلاء التلاميذ الى ما قام به استاذهم عملا جليلا آخر هو « نقط الحروف المعجمة » تمييزا لها من شبيهاتها المهملة كالجيم والخاء بالنسبة الى الحاء ، والضاد بالنسبة الى الصاد ، والشين بالنسبة الى السين الخ ... او للتمييز بين تلك الحروف المعجمة بعضها وبعض ، كالباء والتاء والثاء والنون والياء الواقعة في اوائل الكلمات او اوساطها . وقد عرف نقطهم هذا بـ « نقط الاعجام » تمييزا له من « نقط الاعراب » الذي اصطلح ابو الاسود عليه لبيان وظائف الكلمات الاعرابية . نقول هذا استنادا الى ما روي من ان الحجاج امر نصر بن عاصم او يحيى بن يعمر بالقيام بهذا العمل الجليل كما يقول ابو احمد العسكري في كتاب « التصحيف والتحريف » .

وخلاصة القول انه اذا امكن اعتبار مرحلة ابي الاسود الدؤلي مرحلة النظر في اللغة ـ بتوجيه من الامام علي رضي الله عنه ، او بدافع شخصي محض ـ واستقراء ظواهرها المختلفة ، وتسجيل شيء من الملاحظات الساذجة التي تأتي عفو القريحة والخاطر ، او تمليها مقتضيات مهنة التعليم وظروفها ، فان مرحلة تلاميذ الدؤلي يمكن اعتبارها مرحلة التوسع في الاستقراء والتعمق في النظر ، واثارة المعضلات اللغوية ، ومحاولة مناقشتها على ضوء الملاحظات المسجلة في المرحلة السابقة . وبما انه لم يصلنا ، مع الاسف ، شيء مما ذكروه من تأليف في النحو ، او محاولات «لتعيين ابوابه» و « بعج مقاييسه» و « رسم حدوده » ، لا في هذه المرحلة ولا في التي سبقتها ، فاننا لا نستطيع الجزم بأن مرحلة تلاميذ ابي الاسود تمثل اللبنة الاولى في بناء النحو العربي بمقوماته العقلية والمنطقية التي نعرفها اليوم ، بالرغم من كل ما يطالعوننا به من « مصطلحات » في اثناء رواياتهم وتراجمهم لهؤلاء التلاميذ . فانه يغلب على ظننا ان اولئك الرواد لم يكونوا على معرفة بتلك المصطلحات التي هي من وضع المتأخرين ، كمثل قول القفطي عن نصر بن عاصم انه اول من وضع النحو و «سببه» (توحي هذه اللفظة بفكرة بيان العلل النحوية) وانه « فتق فيه القياس » (الغالب ان فكرة القياس لم تخطر لهؤلاء القوم على بال لانهم لم يكونوا قد توصلوا بعد الى وضع القواعد الكلية والاصول التي يجب ان يقاس عليها) .

واذا لم يكن في الامكان اعتبار مرحلة ابن هرمز واصحابه المدماك الاول في بناء النحو العربي ، فلا اقل من اعتبارها «ارضية» او «اساسا» لهذا البناء الشامخ الذي نعهده اليوم . وقد ساعد هذا الاساس الطيب ابناء الاجيال التالية في اقامة البناء لبنة لبنة ، ومدماكا مدماكا ، حتى صار الى ما هو عليه . ولا ريب ان اولئك الرواد قد اسهموا اسهاما رائعا في حفظ الذكر الحكيم مما كان يمكن ان يعتوره على مر الزمن من اخطار التصحيف وشوائب اللحن ، فتركوا للاجيال التالية « مصحفا » لا يعتمد في اداء نصوصه واعراب

ألفاظه على مجرد ما تحفظه الواح الصدور وحسب ، وانما على رموز ورسوم لا تدع مجالا لتردد في نطق كلمة او تعثر في اخراج حرف .

بقي ان نقول اخيرا ان « المشكلات اللغوية » التي قيل لنا بأن ميمونا الاقرن كان من الائمة الذين يرجع اليهم فيهـــا ، لا يمكن تصورها خارج نطاق القراءات القرآنية التي يدور الخلاف فيها في فلك «الاحرف السبعة» (١) التي نزل بها القرآن الكريم . فالخلافات في القراءات سابقة في الزمن بكثير على المرحلة التي بدأت فيها الانظار اللغوية ومن بينها « النحو » ، بل لعلها ان تكون من اهم الدوافع الى وضعه . فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قرأ في أم الكتاب كلمة «غير» (غير المغضوب عليهم) بالرفع على انها خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هم» او «اولئك» (٢) . وعن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه انه قرأ كلمة «جنات» بالرفع في الآية ٩٩ من سورة الانعام (وهو الذي انزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب . . .) (٣) وكلمة «عصبة» بالنصب في الآية ٨ من سورة يوسف (اذا قالوا ليوسف واخوه أحب الى ابينا منا ونحن عصبة . . . (٤) .

وقرأ ابي بن كعب (المتوفى عام ١٩ هـ) كلمـــة « مصدق » بالنصب في الآية ٨٩ من سورة البقرة (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم . . .) (٥) ، وكلمة « قليل » بالرفع في الآية ٢٤٩ من السورة نفسها (. . . فشربوا منه الا قليلا منهم . . .) (٦) . وعن ابي هريرة رضي الله عنه (المتوفى عام ٥٧ هـ) انه قرأ في فاتحة الكتاب كلمة « مالك » بالرفع (مالك يوم الدين) على انها خبر

---

(١) كثيرا ما تفسر « الاحرف السبعة » التي نزل بها القرآن الكريم على انها «لغات» أي لهجات . لكن ابن الجزري يرد على ذلك بأن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم اختلفا في قراءة سورة الفرقان كما ثبت في الصحيح وكلاهما قرشيان (النشر في القراءات العشر ، ج ١ ، ص ٢٤) .

(٢) النشر في القراءات العشر ، ج ١ ، ص ٤٨ .

(٣) و (٤) و (٥) و (٦) كتاب المصاحف للسجستاني .

لمبتدأ محذوف ، وتابعه في ذلك عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي (المتوفى عام ١٠١ هـ) (١) .

وقرأ عبدالله بن عباس (المتوفى عام ٦٨ هـ) « لا يؤتوا » بدلا من « لا يؤتون » في الآية ٥٣ من سورة النساء (ام لهم نصيب من الملك فاذاً لا يؤتون الناس نقيرا) ، وقرأ ايضا « ولا آمـي البيت » (بحذف النون من « آمين » واضافة « البيت » اليها) في الآية ٢ من سورة المائدة (... ولا آمين البيت الحرام ...) (٢) .

هذا « ويرجع عهد القراء الذين اقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة الى عهد الصحابة رضي الله عنهم ، فقد اشتهر بالاقراء منهم سبعة : عثمان ، وعلي ، وأبيّ ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وابو الدرداء ، وابو موسى الاشعري ، وعنهم اخذ كثير مـن الصحابة والتابعين في الامصار ، وكلهم يسند الى رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣) . وقد جاء في كتاب « البرهان في علـوم القرآن » للزركشي ما يفيد بأن قراءة كل من القراء السبعة ترجع الى قراءة مشهورة من قراءات الصحابة ، اذ « قيل : قراءة ابن كثير ونافع وابي عمرو راجعة الى أبيّ ، وقراءة ابن عامر الى عثمان بن عفان ، وقـراءة عاصم وحمـزة والكسائي الـى عثمـان وعلـي وابـن مسعود » (٤) .

ولعل ما جاء في الروايات عن « تفليق » بعض تلامذة ابـي الاسود بالعربية ، او عن « بعج » القياس في النحو ، مبالغ فيه ، اذ هو لا يعدو في اعتقادنا ان يكون صورا من الاستشهاد بمـا كانـوا يحفظونه من التراث الادبي ، شعرا ونثرا ، منقولا عـن أعـراب البادية المشهود لهم بالفصاحة . وعلى كل حال ، فان الباحث يظل

(١) النشر في القراءات العشر ، ج ١ ، ص ٤٩ .
(٢) كتاب المصاحف للسجستاني .
(٣) مصطفى صادق الرافعي ، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ٥١ .
(٤) ج ١ ، ص ٣٣٨ .

في شك من امره حول ما كان يدور من ابحاث في تلك المرحلة من تاريخ النحو العربي ، حتى يدخل – على حد قول بروكلمان (١) – دائرة التاريخ الصحيح لاول مرة مع طبقة اساتذة الخليل وسيبويه من امثال عيسى بن عمر الثقفي ، وابي عمرو بن العلاء ، وغيرهما ممن سنترجم لهم ونتحدث عن أهم منجزاتهم في الفصل التالي .

(١) تاريخ الادب العربي ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

الفصــل الخــامــس

خطـوة جديـدة

ليس من ريب في انه تخرج بتلاميذ ابي الاسود نفر غير قليل من المشتغلين بالعربية وطلاب القراءة . لكن كتب التراجم لم تحفظ لنا مع الاسف الا اسمين لاثنين من هؤلاء ، الاول هو ابن ابي عقرب الذي لا نكاد نعرف عنه اكثر من انه كان استاذ ابي عمرو بن العلاء في اللغة ، واستاذ شعبة في الفقه . والثاني هو عبد الله بن ابي اسحاق الحضرمي . وقد خطا هذا الاخير بالنحو خطوة جديدة يمكن اعتبارها بحق أول المعالم على طريق « علم النحو » . وتتمثل هذه الخطوة في امور اربعة هي : الاستقراء ، والمناقشة ، والبحث عن الاسباب والعلل ، واعمال الفكر لاخضاع الظاهرة اللغوية لنوع من « القياس » حين يتعذر التعليل .

ولكن لا يظنن احد ان « النحو » اصبح مع الحضرمي كما عرفته الاجيال التالية عليه ، او كما نعرفه نحن اليوم من خلال التراث النحوي الذي بين ايدينا . ودليلنا على ما نقول ، ما ورد في ترجمة ابن ابي اسحاق من ان محمد بن سلام قال :

« سمعت رجلا يسأل يونس (١) عن ابن ابي اسحاق وعلمه . قال : هو والنحو سواء ، أي هو الغاية . قال : فأين علمه من علم الناس اليوم ؟ قال : لو كان في الناس اليوم من لا يعلم الا علمه

(١) هو يونس بن حبيب احد اساتذة سيبويه ، وسوف تأتي ترجمته .

لضحك به ، ولو كان فيهم احد له ذهنه ونفاذه ، ونظر نظرهم كان أعلم الناس » (١) .

ومع ذلك فقد قالوا عن الحضرمي انه « اول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل وكان مائلا الى القياس في النحو » (٢) .

فنحن نستشف مما تقدم انه ، على الرغم من اعترافهم بفضل ابن ابي اسحاق في جعل النحو « علما » ذا منهجية محددة ، فان علمه لم يكن يصلح ان يسمى علما ، حتى في نظر من لا يفصلهم عنه الا فارق زمني يسير . اما الاطر الحقيقية لعلم النحو كما سنتعرف عليها من خلال المؤلفات النحوية الاولى ، وفي طليعتها كتاب سيبويه، فلم تبدأ بالتكون الا على يد تلاميذ الحضرمي ، أي اساتذة سيبويه الذين يدخل المرء معهم لاول مرة دائرة التاريخ الصحيح ، كما قال بروكلمان (٣) .

لا يسعنا اذن الا القول بأن هذا النحوي كان اول النحاة البصريين بالمعنى الدقيق للكلمة ، وانه مؤسس مدرسة البصرة النحوية التي ستبدأ معالمها بالبروز على يد تلاميذه النابهين من امثال عيسى بن عمر الثقفي . وسنحاول فيما يلي ان نرسم منهج الحضرمي في البحث اللغوي من خلال ما جاءنا عنه في كتب الاقدمين .

حدثنا الرواة عن مواقف للحضرمي مع الشاعر الفرزدق ، كان يتصدى فيها لما كان يعتبره «سقطات» لغوية من الشاعر . وتتلخص هذه المواقف في ثلاثة :

١ ــ انشد الفرزدق قصيدته التي مطلعها :

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف
وانكرت من حدراء ما كنت تعرف

(١) اخبار النحويين البصريين ، ص ٢٦ .
(٢) طبقات الزبيدي ، ص ٣١ .
(٣) تاريخ الادب العربي ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

فلما وصل الى البيت الذي يقول فيه :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المال الا مسحتا او مجلف (١)

اعترض عليه الحضرمي بأن القياس النحوي يأبى رفع «مجلف» ، وسأله منكرا : على اي شيء رفعت مجلفا ؟ واجابه الفرزدق : على ما يسوءك وينوءك ، علينا ان نقول ، وعليكم ان تتأولوا .

٢ ـ وانشد الشاعر في مديحه يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام تضربنا
بحاصب كنديف القطن منثور
على عمائمنا يلقى ، وأرحلنا
على زواحف تزجى ، مخها رير

فقال ابن ابي اسحاق : اسأت ، انما هو « مخها ريرٌ » وكذلك قياس النحو (٢) في هذا الموضع . وبناء على الحاح الحضرمي اضطر الشاعر الفرزدق الى تغيير الشطر الاخير فأصبح :

« على زواحف ، نزجيها ، محاسير » .

٣ ـ تضايق الفرزدق من تصدي الحضرمي المستمر له فهجاه في قصيدة جاء خلالها هذا البيت :

فلو كان عبد الله مولى هجوته
ولكن عبد الله مولى مواليا (٣)

(١) عض الزمان : شدته . والمسحت : المستأصل الذي لم يبق منه شيء . والمجلف : الذي بقيت منه بقية . والاشكال في البيت عطف « مجلف » مرفوعا على «مسحت» منصوبا مفعولا به للفعل «يدع» .
(٢) طبقات الزبيدي ، ص ٣٢ .
(٣) قال الشاعر ذلك احتقارا للحضرمي ، لان المولى هو الحليف . والرجل اذا كان ذليلا يوالي قبيلة ليقوى بها ويعتز . واذا والى مولى كان اذل ذليل . وقد كان الحضرمي مولى لآل الحضرمي الذين كانوا بدورهم موالي لبني عبد شمس بن عبد مناف القرشيين .

فما كاد النحوي يسمعه حتى قال : « اخطأت اخطأت ، انما هو مولى موال » .

وقد كان الفرزدق على حق حين قال لابن ابي اسحاق « عليكم ان تتأولوا » . فالنحاة بعد الحضرمي اكثروا من التأويل لتعليل رفع الفرزدق كلمة مجلف . ومن اشهر ما قيل في ذلك رواية ابن جني (١) الذي قال بأن الفعل « ودع » ومضارعه يدع (بكسر الدال) هو بمعنى سكن واتدع . وعلى هذا الاساس تكون رواية البيت « الا مسحت او مجلف » باعتبار كلمة « مسحت » فاعل « يدع » ، ولا يبقى فيه اشكال لغوي . ورواية ابن يعيش في شرح المفصل (باب العلم المنقول وباب الاعلال في الواو والياء لامين) من ان كلمة « مجلف » معطوفة على المنصوب بملاحظة المعنى . فقوله « لم يدع الا مسحتا » معناه : « بقي مسحت » . وهكذا يكون رفع «مجلف» على اساس ان مسحتا فاعل في معناه للفعل يدع .

ومع ذلك فاننا نرى ابن قتيبة (٢) يرفض كل محاولات النحاة في تخريج بيت الفرزدق قائلا بأن الشاعر « رفع آخر البيت ضرورة، واتعب اهل الاعراب في طلب العلة ، فقالوا واكثروا ولم يأتوا فيه بشيء يرضي . ومن ذا يخفى عليه من اهل النظر ان كل ما اتوا به من العلل احتيال وتمويه ؟ »

وكذلك قل في « مخها رير » الذي قال فيه يونس انه جائز حسن . وفي « مولى مواليا » الذي اصبح من شواهد سيبويه على ان بعض العرب يجر نحو « جوار » بالفتحة فيقول : « مررت بجواري » كما قال الفرزدق « مولى موالي » باضافة « موالي » الى « مولى » والالف للاطلاق .

ثم يقال لنا بأن الفرزدق صالح عبدالله وكان بينهما وفاق بعد خصام ، وكأن الشاعر أسلم قياده للنحوي ، ولم يجد بدا من

(١) الخصائص ، ج ١ ، ص ٩٩ .
(٢) الشعر والشعراء ، ج ١ ، ص ٣٣ .

الالتزام بقواعده الاعرابية ، متخليا بذلك عن حق مقدس من حقوقه، وهو ان يجري في ما يقوله على سجيته وهـواه ، مؤثرا سلامة الاتساق الموسيقي في حركة القافية رفعا ونصبا وجرا ، على سلامة قواعد النحو ، كما فعل اسلافه من الشعراء قبله ، حين كانوا يقعون في ما سماه اللغويون « الاقواء » .

وبعد ، فماذا نستنتج من كل ما تقدم ؟

اولا ــ ان الانظار اللغوية اخذت تتعمق على يد الحضرمي فلم تعد مجرد استقراء هدفـه ضبط القراءة علـى اساس الحفظ والتواتر ، وانما غدت نوعا من الاحصاء العلمي يسبق وضع القوانين والقواعد والاقيسة التي يجب ان يقاس عليها ما يمكن ان يكون من ظواهر مماثلة للظاهرة المرصودة . ومن هنا نشأت فكرة « القياس النحوي » التي جأر بها عبد الله بن ابي اسحاق وهو يؤكد للفرزدق خطأه في جر كلمة «رير» بدلا من رفعها خبرا للمبتدأ «مخها» قائلا « وكذلك قياس النحو في هذا الموضع » .

ثانيا ــ ان القيام بأعباء تعليم اللغة لم يعد مرتكزا الـى ما في التلقين من عفوية وبساطة ونقل عن الاوائل ، وانما اصبح يرافقه تطلع الى الاسباب والعلل ، ومحاولات لشرح الظاهرة اللغوية تبعا لما يقدره المعلم من المؤثرات التي أدت الى وجودها . فقد ذكر لنـا القفطي (١) ان ابن سيرين الفقيه كان يعيب على الحضرمي تفسير الشعر ويقول : « ما علمه بارادة الشاعر ؟ » فقال ابن ابي اسحاق : « ان الفتوى في الشعر لا تحل حراما ، ولا تحرم حلالا ، وانما نفتي فيما استتر من معاني الشعر ، واشكل من غريبه واعرابه بفتوى سمعناها من غيرنا ، او اجتهدنا فيها آراءنا . . . » ولنـا دليل آخر في طلبه الى الفرزدق ان يبين له السبب الذي دفعه الى رفـع كلمة «مجلف» . والقول على ظهور « العلة » النحوية على يد عبدالله ، لا يعدو على كل حال ان يكون محاولة تعليمية المراد منها تمرين الطالب

---

(١) انباه الرواه ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

على اعمال فكره لاخراج كل « فاعل » مثلا مرفوعا ، وكل « مفعول » منصوبا ، وكل « مضاف اليه » مجرورا ، وهلم جرا . وليس المقصود تلك التي عرفت فيما بعد في تاريخ النحو « بالعلة الاولى » و « العلة الثانية » و « العلة الثالثة » ، وغير ذلك مما كان من ضروب المماحكات الكلامية التي لا تجدي فتيلا ، والتي هاجمها ابن مضاء القرطبي في « كتاب الرد على النحاة » .

ثالثا ـ ان عبد الله بن ابي اسحاق اقام للنحاة سلطانا على رجال الادب ، فلم يعد هؤلاء مرجعا لاولئك ، كما يفرض منطق الاشياء ، وكما كان الامر في بداية الانظار اللغوية في كل امة ، وانما اصبحوا هم الذين يفزعون الى النحاة ، ويخضعون ادبهم لقواعدهم وقياسهم وعللهم . ولسوف نرى ان الحضرمي فتح الباب واسعا للنقد اللغوي فأخذ طلابه من بعده يغوصون في التراث ، جاهليه واسلاميه ، باحثين عن « اخطاء » الشعراء ، على ضوء القواعد التي تبلور كثير منها على يد استاذهم .

وقد كان ابن ابي اسحاق من قراء الذكر الحكيم النابهين ، تبعا للتقليد المعروف من ان المشتغل باللغة وامورها ، كان مقرئا للقرآن في الدرجة الاولى ، كما عرفنا عن كل الذين تحدثنا عنهم ، بدءا بأبي الاسود الدؤلي . وقد أثر عنه انه كان يقرأ بعض الآيات الكريمة بغير ما قرأ بها من تقدموه . واليك نماذج من ذلك :

كان الحضرمي يقرأ في الآية ٧٨ من سورة هود « قال يا قوم هؤلاء بناتي هن اطهر لكم » بنصب كلمة « اطهر » . وتخريج ذلك على رأي ابن جني ان نجعل « هن » احد جزأي الجملة ونجعلها خبرا لـ « بناتي » كقولك : زيد اخوك هو . ونجعل « اطهر » حالا من « هن » او من « بناتي » والعامل فيه معنى الاشارة ، كقولك : هذا زيد هو قائما .

وكان يقرأ في الآيتين ٢٥ و ٢٦ من سورة يوسف « ... ان كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » فلا ينون « قبل »

و « دبر » مجرورتين بل يبنيهما على الضم قياسا على قوله تعالى في الآية ٤ من سورة الروم « لله الامر من قبل ومن بعد ... » وكأنه اراد ان قميصه قدّ من قبله ومن دبره ، فلما حذف المضاف اليه ، أي هاء الضمير ، اصبحت كلمتا « قبل ودبر » غايتين أي ظرفين فبناهما على الضم ولم يعربهما منونين .

وكان يقرأ في الآية ٣٥ من سورة الحج « والمقيمي الصلاة » بنصب كلمة الصلاة بدلا من جرها ، وكأنه اراد « المقيمين الصلاة » (تكون كلمة الصلاة عندئذ مفعولا به لاسم الفاعل) ، ثم حذف نون « المقيمين » تخفيفا ، وليس بقصد الاضافة ، كما حذف الاخطل نون « اللذان » حين قال :

أبني كليب ان عمي اللذا
قتلا الملوك ، وفككا الاغلالا .

وكان يقرأ في الآية ٢٧ من سورة الانعام « يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » فيختار النصب في « نكذب » و « نكون » ، بينما كان هناك من يقرأهما بالرفع على أساس ان الواو عاطفة ، وهي في نظره واو المعية .

وكان يقرأ في الآية ٢ من سورة النور ، والآية ٣٨ من سورة المائدة « الزانية والزاني » و « السارق والسارقة » بالنصب على المفعولية وكأن فعل الامر التالي لا يصلح في نظره للاخبار عن المبتدأ .

ونستنتج مما تقدم ان عبد الله بن ابي اسحاق قد أقام لنفسه مذهبا خاصا في النحو حاول ان يخرج به عن دائرة ما هو متعارف عليه ومتواتر ، الى دائرة اوسع منها ، الا وهي دائرة القاعدة المعللة المرتكزة الى نوع من التفكير المنطقي . ولعل هذا هو ما قصده الرواة حين قالوا انه أول من «بعج» النحو و «مد» فيه القياس ، و «شرح» العلل .

وفضلا عن هذا فان الحضرمي قد يكون فتح باب التأليف في

اللغة . فهم يحدثوننا انه كان شديد الاهتمام بالهمز ، وانه تكلم فيه ومهر حتى كان له فيه كتاب (او حتى عمل فيه كتاب مما أملاه) . واذا كنا لا نملك الدليل القاطع على صدور كتاب في الهمز عن ابن ابي اسحاق لان شيئا من ذلك لم يصل الينا ، فان ما لا يمكن الشك فيه هو ان الرجل كان ينظر في هذا الباب الذي يعد من اصعب ابواب اللغة واعقدها ، فيناقش فيه ، ويملي على طلابه امالي عن خصائص الهمزة واحوالها حين توصل ، وحين تقطع ، وحين تثبت ، وحين تحذف ، وحين تسهل ، وحين تضاف في بعض لهجات العرب ، وغير ذلك من الامور التي تتصل اتصالا مباشرا بالذكر الكحيم لدى قراءة نصوصه الشريفة او كتابتها .

وبعد فمن هو الحضرمي ؟

انه عبد الله بن ابي اسحاق مولى آل الحضرمي حلفاء بني عبد شمس بن عبد مناف . اخذ علمه عن ميمون الاقرن ، وقراءة القرآن عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم . وهو أحد قراء الذكر الحكيم . وقد عده الزبيدي في الطبقة الثالثة من نحويي البصرة، وعده القفطي في اول الطبقة الرابعة منهم قائلا بأنه « كان لتقدمه في وقت الطلب زاحم عنبسة الفيل وميمونا الاقران في آخر عصرهما ، فجعل في اول هذه الطبقة » .

وقد توفي عام ١١٧ هـ عن ثمانية وثمانين عاما ، وصلى عليه امير البصرة يومئذاك بلال بن ابي بردة . ولا يخفى على احد ما في هذا الامر من تعظيم للرجل واجلال لعلمه واثبات لرفعة مكانته في دنيا العلم .

الفصـــل الســـادس

اللبنات الاولى في

مدرسة النحــو البصريـة

راينا في الفصل السابق كيف استحق عبد الله بن ابي اسحاق الحضرمي ان يعد أول النحاة البصريين بالمعنى الدقيق للكلمة . ومع تلاميذ الحضرمي ندخل ــ كما قال بروكلمان ــ دائرة التاريخ الصحيح النحو العربي . فقد سار هؤلاء التلاميذ على خطى استاذهم في بلورة المنهجية العلمية التي اختط سبيلها للمرة الاولى، وراحوا يضيفون الى معالمها البسيطة ، معالم اشد وضوحا واكثر هديا ، تاركين للجيل التالي تعبيدها نهائيا ، والبلوغ بها الى بناء النحو العربي الشامخ المتمثل في « كتاب » سيبويه عمدة النحو البصري وامام النحاة في كل جيل وعصر .

فتح الحضرمي لطلابه باب النقد اللغوي وتتبع «السقطات» ، فولجه هؤلاء على مصراعيه ، وراحوا يوغلون في سيرهم متصدين للشعراء الفحول من اسلاميين وجاهليين ، فيقيسون ما قالوه على ما تركه لهم سلفهم من «قواعد» القياس ، واعملوا بدورهم قرائحهم وبصائرهم فاستنبطوا له « قواعد » اخرى من عندياتهم .

وكانت حركة النقل عن البداة والاعراب قد نشطت واتسعت، ورشحت معها الخلافات اللهجية ، فانفتح امام رعيل النحاة البصريين الاول ميدان جديد ، اقبلوا على مطروحاته يلتقطونها ، ويتبارون في حملها ، ويتناظرون فيما بينهم مدافعين عنها ، كل حسب هواه ، فظهر على مسرح النحو ما نعرفه اليوم بـ « تعدد » الوجوه في اعراب الكلمة ، او بما يتندر بـه طلاب العربية اليوم من

قولهم « يجوز الوجهان » او « قيل هذا وقيل ذاك وقيل خلافه ... والله اعلم » .

ومع هؤلاء النحاة بدأ النحو بالتمذهب ، فأصبح لبعضهم «مذهب» واضح يعلل على ضوئه ما يتكلم به او يقرأ او يلقن طلابه. فاذا اصطدم بما يخالف مذهبه مما سمع عن العرب ، او مما شاع في الاستعمال ، لجأ الى تصنيفه على اساس انه « لغة » ، أي فارق لهجي . وهكذا رسم اولئك الرواد المباديء الثلاثة الاولى للمدرسة البصرية في النحو ، عنينا : السماع والتعليل والقياس .

ولقد آن لنا ان نعرض لنماذج عن كل صورة من الصور التي تحدثنا عنها اعلاه ليتبين القاريء ما كان لاولئك النحاة الاول من فضل في ارساء اسس المدرسة البصرية في النحو :

كان عيسى بن عمر الثقفي يأخذ على النابغة رفع كلمة «ناقع» في قوله :

فبت كأنـي ساورتني ضئيلـة
من الرقش في انيابها السم ناقع

ويقول بأن حقها النصب على الحالية . ففي نظره انه ما دام المبتدأ « السم » قد اخبر عنه بالجار والمجرور « في انيابها » ، فلا بد من نصب « ناقع » حالا . فالنابغة في « قياس » عيسى مخطيء. لكننا اذا عدنا الى كتاب سيبويه (١) وجدناه يقول بأن المتكلم بالخيار في ان ينصب كلمة « قائم » في قوله : « فيها عبدالله قائما » لأنه بمعنى « استقر عبد الله قائما » ، او ان يرفعها على اعتبار الغاء « فيها » ويكون « عبد الله » مبتدأ و « قائم » خبره . وقد اورد سيبويه بيت النابغة السالف شاهدا على الغاء الجار والمجرور « في انيابها » واعتبار « السم ناقع » مبتدأ وخبرا .

---

(١) ج ٢ ص ٨٨ ، باب ما ينتصب فيه الخبر .

وقد أدى موقف عيسى ، ومن قبله موقف استاذه الحضرمي ، من فحول الشعراء ومشاهير الفصحاء ، الى اعتبارهما من الطاعنين على العرب . قال السيرافي (١) نقلا عن ابن سلام عن يونس ان « ابا عمرو بن العلاء كان اشد تسليما للعرب ، وكان ابن ابي اسحاق وعيسى بن عمر يطعنان على العرب » .

وجاء في طبقات الزبيدي (٢) انه اتى عيسى بن عمر الثقفي الى ابي عمرو بن العلاء فقال له : « يا ابا عمرو ، ما شيء بلغني انك تجيزه ؟ قال : وما هو ؟ قال : بلغني انك تجيز « ليس الطيب الا المسك » بالرفع . فقال ابو عمرو : نمت يا ابا عمر وادلج الناس ! ليس في الارض حجازي الا وهو ينصب ، وليس في الارض تميمي الا وهو يرفع » .

وللقصة تتمة فيها كثير من « الروائية » ، فان بعض من كان حاضرا ذهب الى احد الحجازيين وحاول حمله على رفع كلمة « المسك » فما افلح ، وابى الحجازي واستكبر ، ثم ذهب الى تميمي وحاول حمله على نصب هذه الكلمة ، فما نجح ، وظل التميمي على موقفه من الرفع . وكل ما يهمنا طبعا من هذه القصة هو ان نلاحظ وجهين من الاعراب للكلمة الواحدة نابعين من خلاف لهجي بين الحجازيين والتميميين ، كما هي الحال في «ما» الحجازية واختها التميمية .

اما تمذهب النحو على ايدي هؤلاء الرواد فله اكثر من وجه ، وعليه اكثر من شاهد :

١ ـ كان كل من عيسى بن عمر وابي عمرو بن العلاء يقرأ : « يا جبال أوّبي معه والطير » (سورة سبأ ـ الآية ١٠) بنصب كلمة « الطير » . ولكنهما كانا يختلفان في تأويل النصب ، فيذهب عيسى الى ان الكلمة منصوبة على النداء ، كما في قولك «يا زيد والحارث»

---

(١) اخبار النحويين البصريين ، ص ٢٨ .
(٢) ص ٤٢ وما بعدها .

لما لم يمكن و «الحارث» بالرفع (١) . اما ابو عمرو فكان يقول : « لو كان على النداء لكان رفعا ، ولكنها على اضمار «وسخرنا الطير» لقوله تعالى على اثر ذلك « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر » (الآية ١٢ من السورة نفسها) (٢) .

٢ ـ تابع عيسى بن عمر استاذه الحضرمي في قراءة الآية ٧٨ من سورة هود « قال يا قوم هؤلاء بناتي هن اطهر لكم » بنصب كلمة « اطهر » على الحالية واعتبار « هن » ضمير فصل (او عمادا) لا محل له من الاعراب . وقد انكر عليه ابو عمرو هذه القراءة التي تعتبر مخالفة لما قاله النحويون اجمعون ، ولما قرئت به القراءة المشهورة ، وجادله فيها قائلا له : كيف تقول : هؤلاء بني هم ماذا ؟ فقال عيسى : عشرين رجلا . فأنكر ذلك ابو عمرو (٣) .

٣ ـ قال محمد بن سلام : « كان عيسى بن عمر ينزع الى النصب اذا اختلفت العرب » (٤) . والمقصود بذلك انه كان اذا سمع ما يروى على اكثر من وجه (رفعا ونصبا وجرا) كان يلجأ الى النصب ، لان النصب في نظرهم اخف من غيره على السنة العرب ، وانهم اليه يميلون . واذا صحت الرواية يكون عيسى قد اختط لنفسه نهجا ثابتا يسلكه في كل مرة تختلف فيها وجوه الاعراب في السماع ، وبالتالي يمكن اعتبار عمله طليعة من طلائع المنهجية في تاريخ النحو العربي .

٤ ـ جاء عن علي بن محمد بن سليمان انه قال : « قال ابي : قلت له (المقصود عيسى بن عمر) يوما ، اخبرني عن هذا الذي وضعت ، يدخل فيه كلام العرب كله ؟ قال : لا . قلت : فمن تكلم بخلافك واحتذى ما كانت العرب تكلم به ، اتراه مخطئا ؟ قال : لا .

---

(١) بنصب المعطوف على المنادى ، على اساس ان محل المنادى النصب لانه مفعول به لفعل النداء المقدر .
(٢) انظر الخبر في طبقات الزبيدي ، ص ٤١ .
(٣) نفسه .
(٤) انباه الرواه ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ .

قلت : فما ينفع كتابك ؟ » (١) . وورد عن ابن ابي سعد عن ابن نوفل انه قال : « سمعت ابي يقول لابي عمرو بن العلاء : اخبرني عما وضعت مما سميته عربية ، أيدخل فيها كلام العرب كله ؟ فقال : لا . فقلت : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ قال : اعمل على الاكثر ، واسمي ما خالفني لغات » (٢) . وجاء في (انباه الرواه) انه كان «يقال ان ابا الاسود لم يضع من النحو الا باب الفاعل والمفعول فقط ، وان عيسى بن عمر وضع كتابه على الاكثر ، وبوبه وهذبه ، وسمى ما شذ عن الاكثر لغات » .

واذا امعنا النظر في كل هذه الروايات ــ واذا صحت طبعا ــ أمكننا القول بأن هذه الطبقة من النحاة وضعت للمدرسة البصرية في النحو احد مبادئها الاساسية ، عنينا القياس على المطرد في كلام العرب لبناء القاعدة الكلية ، ثم اعتبار ما كان من كلامهم مخالفا لهذه القاعدة « لغات » ، او ما نعرفه اليوم بالفوارق اللهجية بين مختلف القبائل العربية .

ثم ان لنا في ما كان يختاره كل من عيسى وابي عمرو من قراءة لبعض الآيات البينات دليلا جديدا على اعمال البصيرة والبصر لتسويغ نوع القراءة المختارة ، أي بكلام آخر ذكر « العلة » التي دفعت كلا منهما الى اختيار قراءته. واليك نماذج من تلك القراءات :

١ ــ كان ابو عمرو بن العلاء يقرأ الآية ٦٩ من سورة مريم « ثم لننزعن من كل شيعة أيهم اشد على الرحمن عتيا » بنصب كلمة (أي) ، بل هو اذا سمع احدهم يقرأها مرفوعة ــ كما هي القراءة المشهورة اليوم ــ صححها له منصوبة ، وكان يقول « خرجت من الخندق ، يعني خندق البصرة ، حتى صرت الى مكة ، لم اسمع احدا يقول : اضرب أيهم (برفع اي) افضل » (أي انهم كلهم ينصبون ، ولذلك يرفض هو الا النصب في الآية الكريمة) .

---

(١) اخبار النحويين البصريين ، ص ٣٣ .
(٢) طبقات الزبيدي ، ص ٣٩ .

٢ ــ وكان يقرأ في الآية ١٠ من سورة المنافقون « ... لولا اخرتني الى اجل قريب فأصدق واكن من الصالحين » فينصب الفعل الواقع بعد اصدق (اكون) معطوفا عليه ، على اعتبار ان «اصدق» واقع في جواب التمني «لولا» بعد فاء السببية .

٣ ــ وكان يختار في الآية ٢٧ من سورة الانعام « ... يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » رفع الفعلين « نكذب » و « نكون » معطوفين على الفعل « نرد » فيدخلان في التمني دخوله ، أي وليتنا لا نكذب ، وليتنا نكون .

٤ ــ وكان عيسى بن عمر يختار في الآية ١١١ من سورة يوسف « ... ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » رفع كلمة « تصديق » والمعطوف عليها « تفصيل » و « رحمة » على اعتبار كلمة تصديق ــ وهي منصوبة عطفا على « حديثا » بلكن في القراءة المعروفة ــ خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو ، أي « ولكن هو تصديق » .

٥ ــ وكان يقرأ في الآية ٣٥ من سورة الاحقاف « ... كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار ، بلاغ ، فهل يهلك الا القوم الفاسقون » ، فينصب كلمة « بلاغ » وكأنه يجعله مفعولا به لفعل مضمر ويكون التأويل « وبلغوا بلاغا » .

٦ ــ وكان يختار في الآية ١٠ من سورة القمر « فدعا ربه اني مغلوب فانتصر » كسر همزة « ان » وكأن الجزء الواقع بعد « فدعا ربه » من الجملة حكاية او قول ، ويكون التأويل على ذلك « قال : اني ... » .

وتتسم هذه الحقبة من تاريخ النحو ــ على ما يبدو ــ بطابع جديد آخر ، هو مزيد من الاهتمام بجزئيات الموضوع الذي يدرس او يلقى على الطلبة . فقد قالوا لنا عن الاخفش الاكبر ، احد اساتذة سيبويه ، انه « اول من فسر الشعر تحت كل بيت . ومـا كان

الناس يعرفون ذلك قبله ، وانما كانـوا اذا فرغوا مـن القصيدة فسروها » (١) .

يبقى ان نتساءل : هل عرفت هذه الحقبة عمليات « تأليف » في النحو ؟ الحق ان مـا تركه لنا الرواة في هذا الصدد لا يشفي غليلا . فهم لم يوردوا سوى اشارات لا يمكن الركون اليها ، كما لم يمكن الركون الى مثيلاتها في اخبار من سبقوا النحاة الذين نحـن بصددهم . فالى جانب ما جاء في خبري عيسى وابي عمرو وسؤالهما عن هذا الذي « وضعاه » في العربية ، وهل يدخل فيه كلام العرب كله ، حدثونا عن كتابين لعيسى : احدهما باسم « الجامع » ، والآخر باسم « الاكمال » تارة ، وطورا باسم « المكمل » او « الكمال » ، وتغنوا بالكتابين حتى نسبوا الى الخليل بن احمد الفراهيدي انه قال فيهما : (٢)

بطـل النـحو جميعـا كلـه
غير مـا أحدث عيسى بن عمر
ذاك «اكمال» وهذا «جامع»
فهمـا للنـاس شمس وقمر

او ان « الشاعر » يقول فيهما : (٣)

بطـل النحـو جميعـا كلـه
غـير مـا احدث عيسى بن عمر
وهمـا بابان صـارا حكمـة
وأراحـا مـن قيـاس ونظـر

وبولغ في الامر بعد ذلك حتـى انـه اصبـح لعيسى « نيف وسبعون تصنيفا عدمت ، ومنها تصنيفان كبيران ، اسم احدهما « الاكمال » والآخر « الجامع » . ويقال ان « الجامع » هو كتاب

---

(١) بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٧٤ .
(٢) اخبار النحويين البصريين ، ص ٣١ .
(٣) طبقات الزبيدي ، ص ٤٢ .

سيبويه ، زاد فيه وحشاه ، وسأل مشايخه عن مسائل منه أشكلت عايه فذكرت له فأضافها » (١) . ويستدلون على كون « الجامع » كتاب سيبويه نفسه مع بعض الزيادات بأن هذا الاخير حين احضره ليقرأه على شيخه الخليل قال البيتين السابقين مشيرا الى كتاب « الجامع » بأداة الاشارة المستعملة للاشارة في الحاضر ، أي «هذا».

لكن احدا من الرواة لم يستطع ان يجزم بوجود هذين الكتابين على قرب الزمن بهما . فالسيرافي يؤكد لنا انهما ما وقعا اليه ولا رأى احدا يذكر انه رآهما . والزبيدي يكتفي بذكر البيتين السالفين وينسبهما الى « الشاعر » دون ان يجرؤ على تسميته . والقفطي يؤكد ان تصانيف عيسى جميعا قد « عدمت » . وياقوت يؤكد كذلك ان الكتابين « ما علمنا احدا رآهما ولا عرفهما ، غير ان ابا الطيب اللغوي ذكر في كتابه انهما مبسوط ومختصر . وذكر عن المبرد انه قال : قرات اوراقا من احد كتابي عيسى بن عمر » (٢) .

ومهما يكن من امر « الاكمال » و « الجامع » ، فان بالامكان القول انه في هذه الحقبة من تاريخ النحو ، اخذت الانظار اللغوية في التبلور بشكل قواعد عامة قد تكون في غاية البساطة والبعد عن التعقيد المنطقي ، ولكنها بدأت تلفت الانظار وتشغل الافكار وتهدي الناس الى حل بعض المعضلات كما يهتدى بالشمس والقمر ... وربما لم يفكر عيسى بن عمر ولا غيره في « التأليف » بحد ذاته ، ولكن تجمع مما أملوه على طلابهم ، او مما سجله هؤلاء الطلاب من ملاحظات ، ما يصلح لأن يكون « نواة » لتصنيف في علم النحو ، كان من حسن حظ اللغة ان رأى النور على يد سيبويه . وهناك اشارة تؤكد ما ذهبنا اليه ، وهي التي اوردها ياقوت (٣) عن أبي عبيدة انه قال ان ابا عمرو بن العلاء كانت دفاتره ملء بيته الى السقف ، ثم تنسك فأحرقها .

---

(١) انباه الرواه ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ .
(٢) معجم الادباء ، ج ١٦ ص ١٤٨ .
(٣) نفسه ، ج ١١ ، ص ١٦٠ .

وبعد ، فمن حقنا ان نقول بأن هذه المرحلة من مراحل تاريخ النحو تمتاز عن سابقاتها بشيء من وضوح الرؤية ، يتمكن الباحث معه من استخلاص بعض منجزاتها الملموسة ، والتقاط الخيوط الاولى التي ستتخذ منها الاجيال الطالعة سدى النسيج النحوي ولحمته . وهي من ناحية اخرى تلقي بعض الضوء على سابقاتها ، اذ ان في الاشارة الى بطلان النحو بعد استحداث عيسى بن عمر ـ واضرابه ـ ما استحدث من مذاهب فيه ، تأكيدا بأن هذا العلم لم ينبت هكذا فجأة بشكله الناضج الذي عرفناه له من خلال كتاب سيبويه، وانما سبقته مخاضات عسيرة تجلت في مطارحات لمعضلات لغوية ، ومناقشات فيها ومناظرات ، حتى كان ما كان من نضج وقطف ثمار .

ولعل خير ما يذكر في فضل هذا الرعيل الاول من النحاة لارساء بعض اصول النحو العربي واقامة نهجه ، قصيدة ابي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي ، المنسوب الى يزيد بن منصور ، خال الخليفة المهدي ، في مدح نحويي البصرة واتهام الكسائي الكوفي بافساد النحو ، التي يقول في مطلعها (١) :

يا طالب النحو الا فابكه	بعد ابي عمرو وحماد (٢)
وابن ابي اسحاق في علمه	والزين في المشهد والنادي
عيسى واشباه لعيسى وهل	يأتي لهم دهر بأنداد
هيهات الا قائلا عنهم	ارسوا له الاصل بأوتاد
فهو لمناهجهم سالك	لفضلهم ليس بجحاد

---

(١) راجع القصيدة في اخبار النحويين البصريين ، ص ٤٠ وما بعدها .
(٢) هو حماد بن سلمة ، وستأتي ترجمته .

بقي ان نقول بأن هذه المرحلة قد عرفت ، الى جانب ما ذكرناه، بداية نوع من التخصص في فروع اللغة . فقد اشتهر ابو عمرو بن العلاء مثلا اكثر ما اشتهر بسعة علمه بكلام العرب ولغاتهم وغريبهم، وبمعرفته بأيامهم ، وتمرسه بأشعارهم ، وعرفت للاخفش الاكبر « الفاظ لغوية انفرد بنقلها عن العرب » . وبالرغم من ان تاريخ النحو ظل لا يميز الى زمن بين « نحوي » و « لغوي » ، الا انه غلبت ــ حتى في هذه المرحلة المبكرة ــ على بعضهم سمة « النحو » بمفهومه الدارج في اذهاننا ، وعلى بعض آخر سمة « اللغة » بمفهومها الفقهي او المعجمي .

وبعد ، فهذه ترجمة مختصرة لكل واحد من نحويي هذه الحقبة المعروفين :

١ ــ ابو عمرو بن العلاء

اشتهر هذا النحوي بكنيته (ابو عمرو) ، وفي بعض الروايات ان اسمه زبان بن العلاء بن عمار بن العريان بن الحصين التميمي المازني . اخذ النحو عن عبدالله بن ابي اسحاق ، والقراءة عن نصر بن عاصم . وهو من جلة قراء الذكر الحكيم الموثوق بهم ، واحد القراء السبعة المشهورين . وقد اخذ عنه القراءة ، عرضا وسماعا ، جماعة كثيرون ، واخذ عنه النحو الخليل ويونس واليزيدي . وروى عنه سيبويه الحروف . وكان اوسع علما من استاذه ابن ابي اسحاق بكلام العرب ولغاتها وغريبها . وكان يسلم للعرب ولا يطعن عليها .

ولد ابو عمرو بن العلاء بمكة عام ٦٥ (أو ٦٨) هـ ، وكانت وفاته عام ١٥٤ هـ .

٢ ــ عيسى بن عمر الثقفي

مولى خالد بن الوليد ونزيل بني ثقيف وينسب اليهم . من مقدمي نحويي البصرة ، اخذ عن ابن ابي اسحاق الحضرمي وغيره ، وعنه اخذ الخليل . ينسب اليه كتابان في النحو ، « الجامع »

و « الاكمال » . وقد كان فصيحا ، ونقل عنه كثير من وجوه القراءة في القرآن الكريم . ويبدو انه كان يتقعر في كلامه ويولع باعرابه حتى قال عنه الاصمعي : « كان عيسى لا يدع الاعراب لشيء » .

كانت وفاته عام ١٤٩ هـ .

٣ ـ الاخفش الاكبر

هو ابو الخطاب ، عبد الحميد بن عبد المجيد . من ائمة اللغة والنحو ، لقي الاعراب واخذ عنهم . اخذ عنه يونس وسيبويه وغيرهما . وهو اول من فسر الشعر تحت كل بيت ، وكانوا من قبله لا يفسرون القصيدة الا بعد ان يفرغوا منها . وللاخفش الفاظ لغوية انفرد بنقلها عن العرب ، ولم ترو عن احد غيره .

كانت وفاته عام ١٧٧ هـ .

وهناك الى جانب هؤلاء الثلاثة نفر من النحويين لم تكن لهم شهرة من ذكرنا ، وهم : ابو سفيان بن العلاء ، اخو ابي عمرو ، وكان من اصحاب الغريب والرواة . توفي سنة ١٦٥ هـ . وحماد بن الزبرقان ، وكل ما نعرف عنه انه من طبقة ابي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، وان يونس بن حبيب كان يفضله ، وانه كان حلو المحاضرة ، لطيف العبارة ، ظريف المفاكهة والمداعبة . ومسلمة بن عبدالله ، مولى آل الفهري ، وابن اخت عبدالله بن ابي اسحاق . اخذ النحو عن خاله ، وصار في آخر عمره مؤدبا لجعفر بن ابي جعفر المنصور . وقد مضى معه الى الموصل فأقام بها حتى مات ، فصار علم اهل الموصل من قبله . وبكر بن حبيب السهمي ، وقد اخذ عن عبدالله بن ابي اسحاق . ويبدو ان بلال بن ابي بردة والي البصرة قد حكمه في خلاف بين ابي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر حول لفظ كلمة « سطر » هل هي بسكون الطاء كما قال عيسى ، ام بفتحها كما قال ابو عمرو ، فانتصر لعيسى لأن التسكين أفصح .

الفصـــل الســـابـــع

اساتذة سيبويه

لعل سائلا يسأل عن سبب تسميتنا هذا الجيل من النحاة باسم « اساتذة سيبويه » . والجواب هو ان هذا الرعيل الجديد من علماء النحو لم يتركوا لنا شيئا من اعمالهم مكتوبا بأيديهم ، وكان من بر تلميذهم سيبويه بهم ، ان حفظ لنا بين دفتي كتابه الذي يعتبر بحق مفخرة النحو البصري وركنه الركين ، طائفة من نشاطهم العلمي وكثيرا من نظرياتهم وآرائهم النحوية . وعن طريقه قدر لنا ان نقف على مدى اسهامهم في الارتقاء بالنحو العربي وتحويله من مجرد ملاحظات وانظار ساذجة ، الى « علم » واضح المنهج ، قائم على المنطق العقلاني ، ليس هدفه وقاية اللغة من اوضار اللحن وحسب، وانما العناية بها على اساس انها وسيلة التعبير عن نتاج الفكر العربي ، واداة التواصل بين ابناء الضاد .

واذ كان هدف هذه الدراسة الاول تاريخ « النحو » بمعناه الوظيفي ، بغض النظر عن كل ما درجوا على تعليقه به من صرف وفقه لغة وغيرهما ، فاننا سنقصر حديثنا في هذا الفصل ـ كما في الفصول السابقة ـ على الجانب النحوي البحت من آراء اساتذة سيبويه ، لان الجوانب الاخرى تحتاج في رأينا الى دراسات مستقلة . ولسوف نخص منهم اثنين هما يونس بن حبيب والخليل بن احمد ، فنعرض طائفة من نظرياتهما التي ستبني على اساسها الاجيال التالية كل ما عرفه تاريخ النحو الطويل من تفريعات واجتهادات ومسائل خلاف ومناقضات .

واذا كنا قد اختصصناهما بالاهتمام من بين اساتذة سيبويه، فلاعتقادنا بأن الفضل الاول في تكوين شخصيته العلمية يعود اليهما، كما يعود اليهما فضل تهيئة المادة النحوية التي تشكل ابواب « الكتاب » الرئيسية . وهنا لا بد من القول بأننا ، وان كنا نشاطر الدكتور شوقي ضيف رأيه في ان الخليل قد شغف لب سيبويه واستولى عليه ، لا يسعنا ان نجاريه في قوله بأن اسم يونس يتردد في الكتاب « ولكن غالبا في شواهد اللغة ، لا في الآراء النحوية ، فسيبويه ـ على ما يبدو ـ لم يكن يعجب بتلك الآراء » (١) . فالحق ان في ثنايا الكتاب آراء ليونس لا يملك سيبويه نفسه من ابداء الاعجاب بها ، بل قد يذهب احيانا الى المقارنة في المسألة الواحدة بين قول يونس وقول الخليل ، فلا يتأخر عن الجهر بأفضلية رأي الاول على رأي الثاني ، كما في تعليل قول الاعشى :

ان تركبوا فركوب الخيل عادتنا
أو تنزلون فانا معشر نزل

فيونس يقول برفع « تنزلون » على الابتداء ، كما لو ان الشاعر قال : « او انتم نازلون » . بينما يذهب الخليل الى انه من باب العطف على التوهم ، أي ان الشاعر توهم انه قال : « أتركبون » فعطف عليه « تنزلون » (٢) . ونحن نستغرب كثيرا ان يقول الدكتور ضيف ، وقد اورد هذه المسألة بالذات للتدليل على رأيه في عدم اعجاب سيبويه بآراء يونس ، « فعطف (أي يونس) الجملة الاسمية على الجملة الشرطية ، وكان الخليل وسيبويه يذهبان الى ان ذلك من باب العطف على التوهم » (٣) ، مع انه ليس في نص الكتاب ما يدل على مشاركة سيبويه رأي استاذه الخليل ، بل على العكس من ذلك يقول : « وقول يونس اسهل » ولا يكتفي بذلك بل يعود فيؤكد بأن « الاشراك على هذا التوهم (أي توهم عطف « تنزلون » على «أتركبون») بعيد كبعد « ولا سابق شيئا » (بجر كلمة سابق

(١) المدارس النحوية ، ص ٢٨ .
(٢) الكتاب ، ج ٣ ، ص ٥١ .
(٣) المدارس النحوية ، ص ٢٩ .

منونة) في قول زهير :

بدا لي اني لست مدرك مـا مضى
ولا سابق شيئا اذا كان جائيا » (١) .

اي ان زهيرا عطف كلمة « سابق » مجرورة على كلمة « مدرك » التي توهم انه زاد فيها الباء ، كأنه قال : « لست بمدرك » .

ثم ان هناك مسائل عدة يظهر فيها سيبويه اتفاق يونس والخليل في الراي وموافقته الضمنية على ذلك احيانا ، ومخـالفته لهما جميعا احيانا اخرى . فلنسمعه مثـلا يقـول : (٢) « سألت الخليل رحمه الله عن قولهم ، اضرب ايهم (برفع أي) افضل ، فقال القياس النصب ، كما تقول : اضرب الذي أفضل ، لأن « أيا » في غير الجزاء والاستفهام بمنزلة « الذي » كما ان «من» في غير الجزاء والاستفهام بمنزلة «الذي» . وزعم الخليل ان «أيهم» انما وقع في « اضرب ايهم أفضل » على انه حكاية ، كأنه قال : اضرب الذي يقال له أيهم افضل . واما يونس فيزعم انه « اضرب ايهم افضل » (برفع اي) بمنزلة قولك : اشهد انك لرسول الله . واضرب معلقة » (٣) . وسيبويه يخالف بعد ما قال به استاذاه كلاهما اذ يعلق علـى رفـع «أيهم» بقوله : « انهم جعلوا هذه الضمة بمنزلة الفتحة في «خمسة عشر »» ، وبمنزلة الفتحة في «الآن» حين قال : من الآن الى غد . ففعلوا ذلك بأيهم حين جاء مجيئا لم تجيء اخواته عليه الا قليلا ، واستعمل استعمالا لم تستعمله اخواته الا ضعيفا . وذلك انه لا يكاد عربي يقول : الذي افضل فاضرب ، واضرب من افضل ، حتى يدخل «هو» (٤) . الى ان يقول : « وجاز اسقاط «هو» في «أيهم» كما كان « لا عليك » تخفيفا ، ولم يجز في اخواته الا قليلا ضعيفا » .

---

(١) الكتاب ، ج ٣ ، ص ٥١ .
(٢) الكتاب ، ج ٢ ، ص ٣٩٨–٤٠٠ .
(٣) المقصود بـ «معلقة» انها لا تعمل في ما بعدها كأنما قال المتكلم « اضرب » ، ثم توقف قليلا ليستأنف الكلام قائلا « أيهم افضل » كما هي الحال في « اشهد، انك رسول الله » .
(٤) اي « اضرب الذي هو افضل » ، او « من هو افضل » .

واذا كانت استشهادات سيبويه بأقوال الخليل تفوق في عددها وتنوعها استشهاداته بأقوال يونس في كثير من المسائل والابواب ، فليس ذلك دليلا قاطعا على عدم اعجابه بآراء هذا الاخير النحوية ، وان كان يمكن ان يكون دليلا على تعلقه واعجابه الكبير بالخليل . كذلك فاننا اذ نذهب مع الدكتور ضيف شوطا بعيدا في فضل الخليل على اقامة صرح النحو ، نربأ به وبأنفسنا ان ننكر ما كان ليونس من مشاركة ودور فعال في اقامة هذا الصرح . فاليهما جميعا يرجع الفضل في الانتقال بالنحو من طوره « البسيط » الى طوره «المركب»، اذ على أيديهما غدت المعضلة اللغوية تطرح على بساط البحث فتسلط عليها الاضواء من كل صوب ، وتشبع تقليبا على وجوهها ، وتستنفد فيها المقارنات بمثيلاتها المرويات من كلام العرب او المسموعات من افواههم ، ويتمحل لها احيانا ما قد لا تكون العرب فكرت فيه البتة ، ويذهب بها احيانا اخرى في التأويل والتفسير مذاهب قد لا تكون خطرت لقائلها على بال ، فمن تقدير لفعل مضمر، الى تخيل لحرف محذوف ، الى تصور لعطف على معطوف ليس له وجود الا في ذهن المتأول نفسه ، الى غير ذلك من الاوهام التي سنرى كيف اصبحت فيما بعد « افكارا مسبقة » حنطوها في قوالب اطلقوا عليها اسم « العوامل » ، واخضعوا لها كل «متكلم» و «كاتب» و « شاعر » ، حتى ضج من جورهم كثير من الادباء والمفكرين على مر العصور .

وقد اخذ النحو في هذه المرحلة من تاريخه يتأطر داخل نوع من التفكير العقلاني . لكن ذلك لا يعني انه اصطبغ بالمنطق بمفهومه الفلسفي ، كما سيكون شأنه خلال العصور التالية ، ولا سيما المتأخر منها (١) . والواقع ان ما نلمسه في هذه الحقبة من فكر منظم

---

(١) جاء في ترجمة علي بن عيسى ابو الحسن الرماني (المتوفى عام ٣٨٤ هـ) انه كان يمزج النحو بالمنطق حتى قال ابو علي الفارسي : ان كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء . وان كان النحو ما نقوله نحن ، فليس معه منه شيء . (بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٨١) . ويعلق السيوطي على ذلك قائلا : « النحو ما يقوله الفارسي . ومتى عهد الناس ان النحو يمزج بالمنطق ؟ وهذه مؤلفات الخليل وسيبويه ومعاصريهما ومن بعدهما بدهر لم يعهد فيها شيء من ذلك » .

في شكل نظريات منطقية، ليس الا وليد رقي العقل العربي بمفروزات الحضارة الجديدة ومعطيات الثقافة التي بدأت تسود المجتمع العربي آنذاك ، واتساع حلقات التعليم وما يستتبع ذلك من حاجة الى الاقناع بالحجج والبراهين العقلية ، خصوصا بعد ان غدت تلك الحلقات محافل للمناظرة العلمية الى جانب كونها اندية للمحاضرة ونشر العلم والثقافة .

وبعد ، فهذه على سبيل المثال لا الحصر ، طائفة من آراء يونس والخليل تعين على فهم الاسس الثلاثة التي وضعها ورسخها هذان العالمان الجليلان ، فقامت عليها المدرسة البصرية في النحو ، عنينا : السماع والقياس والتعليل ، بعد ان تسلماها اجنة طرية من أيدي اساتذتهم الاول ، وعلى الاخص عيسى بن عمر وابو عمرو بن العلاء .

● يرى يونس ان نصب كلمة « وحد » في قولك : مررت به وحده ، هو بمنزلة نصب الظرف « عند » ، لأنه في رأيه كقولك : مررت برجل على حياله ، ثم طرحت « على » . ويبدو ان الخليل لا يوافق يونس على هذا التعليل ، بل يذهب الى ان نصب ، «وحد» هو على قياس قولك : « مررت به خصوصا » (١) .

● ذهب يونس الى ان نصب « خمستهم » و «الجماء الغفير » و « قضهم » في قولك : مررت بهم خمستهم ، ومررت بهم الجماء الغفير ، ومررت بهم قضهم ، هو على قياس : مررت بهم جميعا ، او عامة ، او طراً ، او قاطبة ، وان كل هذه الاقوال هي بمثابة قولك : مررت به وحده . وقاس « خمستهم » على مثال قولك : كلمته فاه الى فيّ (٢) . اما الخليل فقال بأن نصب العدد (من ثلاثة الى عشرة) في قولك : مررت بهم ثلاثتهم (وهي لغة اهل الحجاز) ، هو على قياس قولك : مررت بهؤلاء فقط ، لم اجاوز هؤلاء . بينما يجري بنو تميم « العدد » على الاسم الاول ، ان كان جرا فجرا ، وان كان

---

(١) الكتاب ، ج ١ ، ص ٣٧٨ .
(٢) نفسه ، ص ٣٧٧ .

نصبا فنصبا ، وان كان رفعا فرفعا ، اي انك تقول : مررت بالرجال ثلاثتهم (بالجر) ، ورأيت الرجال ثلاثتهم (بالنصب) ، وحضر الرجال ثلاثتهم (بالرفع) . وفي رأي الخليل ان اجراء «العدد» هـو بقصد التعميم . فانت حين تقول : مررت بهم ثلاثتهم (بالجر) ، فكأنما اردت : مررت بهم كلهم ، أي لم أدع منهم احدا . ولا يكتفي الخليل بكل هذه الاقيسة والتعليلات، بل يذهب الى ابعد من ذلك فيستنبط قياسا عقلانيا لا وجود له في الاستعمال ، وهو ان نصب «وحده» و «خمستهم» هو بمثابة قولك : افردتهم افرادا (١) .

اما نصب « الجماء الغفير » في قولك : مررت بهم الجماء الغفير ، والناس فيها الجماء الغفير ، فهو في نظر الخليل على مثال نصب المصدر « العراك » في قولك : ارسلها العراك ، معللا ذلك بأن العرب ادخلت الالف واللام في هذا الحرف وتكلمت به على نية ما لا يدخله الالف واللام ، أي على قياس الحال النكرة ، لان الحال لا تكون في قياسه الا كذلك (٢) .

● يعلل يونس العطف بالرفع على اسم « ان » في قولك : ان زيدا فيها وعمرو ، بأن معنى الحديث كمعنى : زيد منطلق، والحرف المشبه بالفعل استعمل للتأكيد ، فيكون « عمرو » على استئناف الكلام ، أي كأنك قلت : ان زيدا فيها ، وعمرو فيها . وعليه كان رفع كلمة «رسول» في قوله تعالى : « ... ان الله بريء من المشركين ورسوله » (٣) . ويعلل نصب كلمة « قادرين » في قوله تعالى مـــن

---

(١) الكتاب ، ج ١ ، ص ٣٧٤ .

(٢) نفسه ، ص ٣٧٥ . ويقول السيرافي في شرح ذلك : اعلم ان الجماء هو اسم، والغفير نعت لها ، وهو بمنزلة قولك في المعنى : الجم الكثير ، لانه يراد بـه الكثرة . والغفير يراد به انهم غطوا الارض من كثرتهم ، من قولنا : غفرت الشيء ، أي غطيته . ونصبه في قولك : مررت بهم الجماء الغفير ، على الحال، والحال اذا كان اسما غير مصدر لم يكن بالالف واللام ، فأحوج ذلك سيبويه والخليل ان جعلا الجماء الغفير في موضع المصدر كالعراك ، كأنك قلت : مررت بهم الجموم الغفر ، على معنى مررت بهم جامين غافرين .

(٣) نفسه ، ص ٢٣٨ .

الآية ٤ من سورة القيامة « بلى قادرين » على الفعل الذي اظهره في الآية التي قبلها « نجمع » في قوله عز وجل « أيحسب الانسان ألن نجمع عظامه » كأنه قال : « بلى نجمعها قادرين » (١) . ويعلل فتح همزة «أن» في قولك : « متى تقول انه منطلق ؟ » ، بأن فعل القول ليس للحكاية وانما هو بمعنى الظن ، فكأنك قلت : « متى تظن انه منطلق ؟ » (٢) . وعلل تكرار الفاعل في قوله تعالى في الآية ٣ من سورة الانبياء : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » بأن «الذين» بدل من الواو في «أسروا» ، كما فيما لو قال احدهم : انطلقوا ، فقيل له : من ؟ فقال : بنو فلان (٣) .

● اجاز الخليل في قولك : « مررت به المسكين » الوجوه الثلاثة في اعراب كلمة « المسكين » . فالجر على البدلية من الهاء في «به» ، والرفع على الابتداء ، كأنك قلت « مررت به المسكين هو » او « المسكين مررت به » ، والنصب على الترحم ، كما ان في قولك « رحمة الله عليه » معنى « رحمه الله » . اما يونس فقد جعل النصب على الحالية ، كأنك قلت « مررت به مسكينا » (٤) .

ننتقل بعد ذلك الى هذه الطائفة من آراء الخليل ، ومنها يظهر بوضوح اصطباغ النحو على يديه بالصبغة العقلانية الصرف :

ــ يعلق الخليل على نصب كلمة «أم» في قول الشاعر :

اذا تغنى الحمام الورق هيجني
ولو تغربت عنها ، أم عمار

(١) نفسه ، ص ٣٤٦ .
(٢) الكتاب ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .
(٣) الكتاب ، ج ٢ ، ص ٤١ .
(٤) نفسه ، ص ٧٥ـ٧٦ . يخالف سيبويه راي يونس قائلا : « وهذا لا يجوز لانه لا ينبغي ان يجعله حالا ويدخل فيه الالف واللام . ولو جاز هذا لجاز : مررت بعبد الله الظريف ، تريد ظريفا . ولكنك ان شئت حملته على احسن من هذا، كأنه قال : لقيته المسكين ، لانه اذا قال : مررت بعبد الله ، فهو عمل ، كأنه اضمر عملا . وكأن الذين حملوه على هذا انما حملوه عليه فرارا من ان يصفوا المضمر (أي هاء الغائب في «به») فكان حملهم اياه على الفعل احسن » . وهذا رأي جديد لسيبويه يبين تطور مبدأ التعليل على يديه .

بأنه لما قال « هيجني » عرف انه قد كان ثم «تذكر» لتذكره الحمام وتهييجه ، فألقى ذلك الذي قد عرف منه على أم عمار ، وكأنه قال : « هيجني فذكرني أم عمار » . وعلى غراره كان يعلل نصب «زيد» و «عمرو» في قوله : « الا رجل ، اما زيدا واما عمرا». فهو حين قال : « الا رجل » متمن شيئا يسأله ويريده ، فكأنه قال : « اللهم اجعله زيدا او عمرا » او قال : «وفق لي زيدا او عمرا» (١).

ـ ويعلل نصب كلمة «القرطاس» في قولك : «القرطاس» اذا رأيت رجلا قد سدد سهمه ، بأن مراد المتكلم : «اصبت القرطاس»، اي « انت عندي ممن سيصيبه » . ولا يكتفي بهذا الاستنباط ، بل يمد في التعليل والتأويل مبينا السبب في حذف الفعل وترك السامع يقدره، فيكون ذلك السبب في رأيه «كثرة الاستعمال» (٢) . واذا شئنا ان نتحدث بمنطق « علم اللغة الحديث » ، قلنا ان السبب هو ميل المتكلم الى الاختزال والسهولة المتمثل في حذف جزء من الجملة اصبح بمنزلة المقرر في ذهن المخاطب ، فلا حاجة بالتالي الى مزيد من التقرير .

ـ ويعلل صيغة التثنية في مثل « حنانيك » بأن المتكلم اراد : تحننا بعد تحنن . ويذهب الى اكثر من ذلك فيغوص في ذهن ذلك « المتكلم » باحثا عن سبب «ارادته» ، فيخلص الى انه كأنما قال : كلما كنت في رحمة وخير منك فلا ينقطعن ، وليكن موصولا بآخر من رحمتك (٣) . وهكذا نرى كيف ان صيغة المثنى ليست مجرد « ظاهرة لغوية » علينا قبولها كما توارثناها عن اسلافنا من الناطقين بالعربية ، وانما هي في نظر الخليل جزء من « اللغة الانفعالية » يعبر عن حالة نفسية معينة للمتكلم ، فهو طامح الى مزيد من الرحمة والحنان اللذين ينعم بهما في حالة التكلم ، او طامع في سعة منهما اذا استجاب له من يطلب رحمته وحنانه .

---

(١) الكتاب ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .
(٢) نفسه ، ص ٢٩٥ .
(٣) الكتاب ، ج ١ ، ص ٣٤٩ .

ـ ويقول انه لا يجوز نصب كلمة «يد» في قولك : « كلمني يده في يدي » قياسا على « كلمني فاه الى فيّ » ، ولا يكون الا رفعها على الابتداء . وتعليله لذلك ان الجزء الثاني من العبارة (يده . . .) ليس من صفة الكلام كما هي الحال في (فاه . . .) ، أي ان العضو المستعمل في العبارة الاولى ليس من اعضاء النطق. وهكذا نرى ا نقبوله نصب كلمة «فاه» على الحالية لم يتم « في المطلق » او دون قيد ، بل جاز لأن هناك تلاحما عضويا بين الفعل المستعمل والاداة المنفذة ، كما ان في قولك « قلبت الاناء رأسا على عقب » تلاحما ، اذ ان راس الاناء وعقبه جزءان منه . فالكلام في العبارتين الاخيرتين متصل ، وكل واحدة منهما « وحدة تامة » لا يجوز الفصل بين جزئيها ، بخلاف العبارة الاولى « كلمني ، يده في يدي » التي لا دخل للجزء الثاني منها بالجزء الاول ، لأن «اليد» ليست من اعضاء الكلام كالفم . والانفصال « العضوي » بين العمل والاداة المستعملة في تنفيذه يستتبع بالضروورة انفصالا بين جزئي العبارة ، ينتج عنه ان يكون الجزء الثاني استئنافا او ابتداء ، ولذا يكون الرفع لا غير .

ـ ويقع الخليل على ظاهرة لغوية غريبة تتكرر في عدة آيات بينات من الكتاب الكريم ، فالفعل «يسبحون» (١) لليل والنهار والشمس والقمر ، و « رأيتهم » و « ساجدين » (٢) الكواكب والشمس والقمر ، و « ادخلوا » و « مساكنكم » (٣) للنمل ، وكلها جرت مجرى جمع المذكر الذي هو للعاقلين ، بينما العهد بالعرب انهم يعاملون ما لا يعقل معاملة المؤنث . وكان المخرج من هذه المعضلة ، ان يعمل الخليل عقلانيته فيذهب الى ان تلك المسميات جاءت « بمنزلة ما يعقل ويسمع » (٤) ، فهي اذن بمنزلة « البشر » .

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الانبياء .
(٢) الآية ٤ من سورة يوسف .
(٣) الآية ١٨ من سورة النمل .
(٤) الكتاب ، ج ٢ ، ص ٤٧ .

ـ ويسأل سيبويه الخليل عن قول العرب « مـــا احسن وجوههما ! » طالبا اليه تعليل صيغة الجمع في كلمة «وجوه» بينما المضاف اليه مثنى ، فيحتكم الاستاذ الى منطقه العقلاني ويجيب «لان الاثنين جمع» . ولا يكتفي بهذا القدر ، بل يدعم برهانه ببرهان آخر من المنطق ذاته ، ويتابع قائلا : « وهذا بمنزلة قـول الاثنين : نحن فعلنا ذلك » (١) .

ـ ويذهب الخليل الى ان «ان» أم حروف الجزاء (الشرط) ، وانها الاصل وما سواها توابع لها . وحين يسأله سيبويه عن السبب الذي حمله على هذا القول يجيب بالمنطق نفسـه : « من قبل اني أرى حروف الجزاء قد يتصرفن فيكنّ استفهاما (٢) ، ومنها ما يفارقه (ما) فلا يكون فيـــه الجزاء (٣) ، وهذه ـ المقصود « ان » ـ على حال واحدة لا تفارق المجازاة » (٤) .

وتتعدد الامثلة على خصوبة عقل الخليل وتعليلاته العقلانية . ويكون منها احيانا ما يجانبه فيه الصواب ، او يبدو فيه على الاقل مغرقا في التمحل والتأويل . لكن ذلك لا يغض من شأنه على أي حال ، لقلته بازاء الكثير الجيد . واليك مثلين على ذلك :

أولا ـ جاء في الكتاب (٥) انك تقـول : « لـه صوت صوت الحمار ، (بنصب صوت الثانية) ، فانما انتصب هذا لأنك مررت به في حال تصويت ، ولم تر أن تجعل الآخر صفة للاول ، ولا بدلا منه . ولكنك لما قلت : « له صوت » علم انه كان ثم عمل ، فصار قولك « له صوت » بمنزلة قولك « فاذا هو يصوت » ، فحملت الثاني على المعنى . . [وهذا رأي سيبويه] . وقد قال الخليل انه يجوز « له صوت ، صوت الحمار » (برفع «صوت» الثانية) على

---

(١) نفسه ، ص ٤٨ .
(٢) مثل «من» و «ما» حين يكونان اسمي استفهام .
(٤) مثل «اين» و «حيث» و «كيف» التي لا تستعمل في الشرط الا مضافا اليها «ما».
(٤) الكتاب ، ج ٣ ، ص ٦٣ .
(٥) الكتاب ، ج ١ ، ص ٣٦١ .

الصفة لأنه تشبيه . فمن ثم جاز ان توصف النكرة به » . ولم يكتف الخليل بهذا التعليل بل ذهب الى ابعد منه فقال : « انــه يجوز ان يقول الرجل : « هذا رجل ، اخو زيد » ان اردت ان تشبهه بأخي زيد » . وقد رد عليه سيبويه بأن « هذا قبيح ضعيف » . واضاف، وكأنما اراد الاعتذار عن استاذه الذي يجله : « لا يجوز الا في موضع الاضطرار » ، ثم استطرد بمنطق مماثل لمنطق استاذه : « ولو جاز هذا لقلت : « هذا قصير الطويل » ، تريد : مثل الطويل » .

ثانيا ـ ويقع الخليل على قوله تعالى « السماء منفطر به » (من الآية ١٨ من سورة المزمل) ، ويرى التذكير في كلمة «منفطر»، وعهده بـ «السماء» مؤنثة ، فيعلل لذلك بأنه بمثابة قــول العرب «معضل» للقطاة التي عسر عليها خروج البيض ، و «مرضع» للمرأة التي بها الرضاع ، اي تذكيرهم الكلام مع المؤنث اذا كان دالا على حالة لا على عمل . فـ «المنفطرة» يجيء ، في رأيه ، علــى العمل ، كقولك « منشقة » للتي انشقت ، و « مرضعة » للتي ترضع (١) . وقد فات الخليل ان هاء الضمير في «به» هي للمفرد المذكر ، وهي شاهد على تذكير السماء . ولو كان الامر كما قال لوجب ان يكون الضمير مؤنثا . ولعل في راي ابن فارس شاهدا آخــر علــى بعد التخريج الذي ساقه الخليل . فابن فارس يرى (٢) ان «السماء» في هذه الآية الكريمة محمولة على معنى «السقف» ، كمــا يحملون تذكير « ثلاثة » مع «انفس» وهي من المؤنث ، في قولهم : «ثلاثة انفس» على معنى «الانسان» ، وتأنيثها مع شخوص (كما في قول عمر بن ابي ربيعة : ثلاث شخوص : كاعبان ومعصر) ، علــى معنى أنهن «نساء» ، وكما في قوله تعالى « واعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيرا » (من الآية ١١ من سورة الفرقان) ، والسعير مذكر ، ثم قوله في الآية التي تليها « اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا » ، فأنث على معنى « النار » الخ . . .

* * *

(١) الكتاب ، ج ٢ ، ص ٤٧ .
(٢) الصاحبي ، ص ٢٥٤ .

وبعد فهذه ترجمة مختصرة لاستاذي سيبويه الرئيسين :

● يونس بن حبيب

هو ابو عبد الرحمن الضبيّ ، مولى لهم ، اخذ عن ابي عمرو ابن العلاء وبرع في النحو وكان له فيه قياس ومذاهب تفرد بها. سمع منه الكسائي والفراء وهما من مشاهير نحاة الكوفة . وكانت حلقته بالبصرة قبلة اهل العلم وطلاب الادب وفصحاء الاعراب والبادية . مما وصف به ان مثله مثل كوز ضيق الرأس لا يدخله شيء الا بعسر ، فاذا دخله لم يخرج منه ، دلالة على انه لا ينساه . وقيل فيه ايضا انه لم يكن ابذل منه للعلم .

مات عام اثنين وثمانين ومائة ، عن ثمانية وثمانين عاما ، وقيل اكثر من ذلك .

● الخليل بن احمد الفراهيدي

هو ابو عبد الرحمن احمد بن عمرو بن تميم ، عربي من الازد ، أول من استخرج عروض الشعر ، وحصر اشعار العرب بها . كان شديد الذكاء ، واسع المعرفة ، زاهدا في الدنيا ، لم يعرف عنه انه عاش في كنف احد من الاعيان او الامراء او النافذين ، بل كان منقطعا للعلم وصنف كتاب « العين » المشهور ، وهو معجم لغوي يبدو أنه باكورة المعاجم العربية . وكان الى جانب ذلك خبيرا بالايقاع والنغم والموسيقى ، ويقال ان له كتابا في « الانغام » .

توفي سنة سبعين ومائة ، وقيل سنة خمس وسبعين ومائة ، عن اربع وسبعين سنة .

الفصل الثامن

نظرية العوامل

لعل خير ما نختتم به هذه المرحلة من تاريخ النحو العربي التي وقفنا بها عند اساتذة سيبويه ، هو ان نلم الماما عجلى بما عرفته كتب اللغة والنحو باسم « العوامل » و « المعمولات » ، وبما سنطلق عليه نحن اسم « نظرية العوامل » . وقبل الخوض في الحديث عن هذه النظرية لا محيد عن جلاء امرين :

الاول ـ ما المقصود بـ «العوامل» ؟

والثاني ـ ما الفرق بين نظرية العوامل ونظرية اخرى اكثر تعقيدا ، تلك التي عرفت في العصور المتأخرة باسم «علل النحو» (١)؟

فأما المقصود بـ « العوامل » فهو انه لا بد في أية ظاهرة من ظواهر الاعراب في الكلمة (رفعا ، او نصبا ، او جرا ، أو جزما) من وجود « مؤثر » يعمل فيها كي تكتسب تلك الظاهرة . فالفعل مثلا يعمل الرفع في الفاعل ، والنصب في المفعول ، و « كان واخواتها » تعمل الرفع في اسمائها ، والنصب في اخبارها ، وعلى العكس منها « انّ واخواتها » ؛ وحروف الجر تعمل في الاسماء التي تليها فتخفضها ؛ وحروف الجزم تعمل في الافعال فتسكن اواخرها او تحذف منها حروف العلة او نون المثنى والجمع ؛ والمبتدأ يعمل الرفع في الخبر ، الى آخر ما هنالك مما اصطلحوا عليه .

(١) انظر ما قلناه في الفصل السابق عن اصطباغ النحو في المرحلة التي عالجناها بالصبغة العقلانية البعيدة عن المنطق الفلسفي الذي طبع النحو في عصر الرماني مثلا .

وهذه العوامل التي ذكرنا عوامل « لفظية » بمجموعها ، سواء كانت ظاهرة كما في قولك مثلا « هو المسكين » ، او غير ظاهرة ، كما في مثل قولك « مررت به المسكين » برفع كلمة « المسكين » على انها خبر لمبتدأ تقدره بكلمة «هو» .

ثم يحدث ان يصطدم اصحاب النظرية بظواهر لغوية تلبس حالة من حالات الاعراب المعروفة دون ان يكون هناك « مؤثر » لفظي ـ كما هي الحال مثلا في كون «المبتدأ» مرفوعا بالرغم من انتفاء وجود مؤثر يعمل فيه الرفع ـ فما العمل ؟ لم يفقد النحاة صوابهم امام مثل هذه الظاهرة ، بل راحوا يحتالون للبقاء منسجمين مع انفسهم ومنطقهم في انه لا بد من وجود «عامل» يعمل في الكلمة ، فما كان منهم الا ان قالوا بأن «عامل الرفع» في المبتدأ عامل « معنوي » سموه « الابتداء » . . .

واذا نحن تساءلنا من اين للنحويين بمثل هذا النهج العقلاني، جاءنا الجواب بأن النحو علم نشأ في كنف عدة علوم اخرى يتصل معظمها بالدين ، كالفقه والحديث وعلم الكلام ، وما اليها ، وان هذه العلوم رافقتها يقظة فكرية طالما قادت المشتغلين بها الى تحكيم العقل والاحتجاج به في شرح المعضلات وبيان الاسباب . فكان ان احتذى النحويون سبل المحدثين في العناية بالسند ورجاله ، والحرص على التمييز بين العدول منهم والمجرحين ، وحاكوا المتكلمين فـي تطعيم النحو بشيء من الفلسفة والتعليل ، ونهجوا نهج الفقهاء في وضع الاصول وفي الاجتهاد وفي بنـاء القواعد علـى السماع والقياس والاجماع .

وتسرب الى النحويين فيما تسرب اليهم في اتصالهم بعلـوم الدين والكلام فكرة « العامل » وهي تعتبر المحور الذي دار عليه النحو وما زال حتى ايامنا هذه . » ولئن كان النحويون قد قالوا بفكرة العامل التي قال بها الفقهاء ، وراحوا يكرهون النحو علـى تطبيقها والخضوع لما تقتضيه من تقدير وتأويل ، فانه كان بين الموقفين بون واسع وفرق بعيد . وقد غاب هذا الفرق عـن كثير

من النحويين . ان بين الفقه والنحو من الاختلاف ان الفقه يعتمد نصا مقدسا ويستنبط منه امرا واجبا او « فرضا » ، وان الفقه اذا اعتمد على القياس فلأن العلة فيه ـ اذا وجدت واتضحت ـ موجبة، واما النحو فيعتمد شواهد من كلام الناس لا نصوصا مقدسة ، ويقوم على جمع ما تشابه من ظاهرات اللغة تحت احكام عامة . . . ثم يحاول بعد ذلك ان يتلمس العلة لأحكامه ، وليست علته اذن ـ اذا ثبتت ـ الا علة مستنبطة ، وليست هي علة موجبة كالعلة الفقهية . ولو كانت علل النحو موجبة ، لما كان هناك وجه لتعدد العلل في تعليل الامر الواحد » (١) .

واما عن العلاقة بين نظرية العوامل وبين « علل النحو » والفرق بينهما ، فنقول اولا انهما نابعتان كلتاهما من معين واحد هو العقل البشري الذي من طبيعته التساؤل عن الاسباب الكامنة وراء اية ظاهرة مهما كان نوعها ، وبالتالي طموحه الى تفسيرها واخضاعها لأحكام منطقه . ويبدو لنا ان « العلل » النحوية بصورتها البسيطة ، وهي التي يسميها الزجاجي (٢) « العلل التعليمية » ، قد رافقت في الاساس نظرية العوامل ، بل هي امتزجت بها ، حتى ليصعب على المرء التمييز بينهما . واليك ما يقوله الزجاجي (٣) :

« وعلل النحو بعد هذا على ثلاثة اضرب : علل تعليمية ، وعلل قياسية ، وعلل جدلية نظرية .

« فأما التعليمية فهي التي يتوصل بها الى تعلم كلام العرب ، لأنا لم نسمع نحن ولا غيرنا كل كلامها منها لفظا ، وانما سمعنا بعضا فقسنا عليه نظيره . مثال ذلك انا لما سمعنا « قام زيد فهو قائم ، وركب فهو راكب » عرفنا اسم الفاعل فقلنا « ذهب فهو ذاهب ، واكل فهو آكل » وما اشبه ذلك ، وهذا كثير جدا وفي الايماء اليه

---

(١) الدكتور مازن المبارك ، النحو العربي ، ص ٨٦ .

(٢) هو ابو القاسم ، عبد الرحمن بن اسحاق ، وينسب الى استاذه ابراهيم بن السري الزجاج ، من نحاة القرن الرابع الهجري المشاهير . توفي في طبرية عام ٣٣٧ هـ على ارجح الاقوال .

(٣) الايضاح في علل النحو ، ص ٦٤ .

كفاية لمن نظر في هذا العلم . فمن هذا النوع من العلل قولنا « ان زيدا قائم ، ان قيل : بم نصبتم زيدا ؟ قلنا : بأن ، لأنها تنصب الاسم وترفع الخبر ، لانا كذلك علمناه ونعلمه » . وكذلك « قام زيد ، ان قيل : لم رفعتم زيدا ؟ قلنا لانه فاعل اشتغل فعله به فرفعه » . فهذا وما اشبهه من نوع التعليم ، وبه ضبط كلام العرب » .

وقد سبق ان قلنا بأن النحو العربي نشأ اول ما نشأ في حلقات التدريس واقراء الذكر الحكيم ، وانه لا بد ان تكون قد واجهت الطبقة الاولى من المعلمين والمقرئين اسئلة من طلابهم — ولا سيما من كانوا من اصول غير عربية — عن الاسباب الكامنة وراء الظواهر الاعرابية ، وغيرها من الظواهر اللغوية ، فكان هؤلاء يضطرون الى استنباط تلك الاسباب والعلل وشرحها بشكل مبسط ، لاقناع اولئك الطلاب بما يعلمونهم . ولا نشك كذلك في ان اسئلة الطلاب كانت تثير في اذهان المعلمين تساؤلات ، كانوا يبحثون لها بدورهم عن اجابات مرضية كفيلة باشباع فضول الطلاب . وقد نشأ عن هذه العمليات جميعا ما سماه الزجاجي بالعلل التعليمية ، وما عرف في اوائل العهد بنشأة النحو باسم « العوامل والمعمولات » .

ويؤدي بنا هذا الى تأكيد ما قلناه من صعوبة التمييز بين النظريتين حتى المرحلة التي نحن بصددها، لأن الهدف منهما واحد. واذ لم يصلنا اي مؤلف في النحو قبل كتاب سيبويه ، فانه من العسير تصور ما كانت عليه « العلة » او ما كان عليه « العامل » قبل عصر اساتذة سيبويه وعلى راسهم الخليل ، وان كان من الجائز تصور وجودهما في ذهن ابن ابي اسحاق الحضرمي مثلا وهو يتصدى للفرزدق ويتتبع ما كان يعتقد انه « اخطاء » او « سقطات » للشاعر، أو في ذهن عيسى بن عمر وابي عمرو بن العلاء حين كانا يعللان لقراءة قرآنية يقرآنها ، سواء اتفقا فيها او اختلفا .

واليك ما قاله الخليل حين سئل عن العلل التي يعتل بها في النحو « عن العرب اخذتها ام اخترعتها من نفسك ؟ فقال : ان العرب

نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقام في عقولها علله ، وان لم ينقل ذلك عنها . واعتللت انا بما عندي انه علة لما عللته منه . فان اكن اصبت العلة فهو الذي التمست . وان لم تكن هناك علة له ، فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء ، عجيبة النظم والاقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانيها ، بالخبر الصادق ، او بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة ، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال : انما فعل هكذا لعلة كذا وكذا ، ولسبب كذا وكذا ، سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك ، فجائز ان يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار ، وجائز ان يكون فعله لغير تلك العلة ، الا ان ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل ان يكون علة لذلك . فان سنح لغيري علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول ، فليأت بها » (١) .

اما ما آلت اليه نظرية العلة النحوية فيما بعد فبعيد كل البعد عن نظرية العوامل والمعمولات . فلم تعد العلة مفتاحا يتوسله المعلم لشرح معضلة استغلق ذهن الطالب دون فهمها ، بل راحت تتلبس على مر العصور بمفروزات المنطق الفلسفي ومركباته ، حتى ناءت بها كتب النحو واللغة لكثرة ما عملت فيها نفخا واطالة . فمن علة « تعليمية » انتقلت الى علة « قياسية » يقال معها « لمن قال نصبت زيدا بأن في قوله ان زيدا قائم : «ولم وجب ان تنصب (ان) الاسم»؟ فالجواب في ذلك ان يقول : « لانها واخواتها ضارعت الفعل المتعدي الى مفعول ، فحملت عليه فأعملت اعماله لما ضارعته ، فالمنصوب بها مشبه بالمفعول لفظا ، والمرفوع بها مشبه بالفاعل لفظا ، فهي تشبه من الافعال ما قدم مفعوله على فاعله ، نحو : ضرب اخاك محمد ، وما اشبه ذلك » (٢) .

ثم انتقلت الى علة « جدلية نظرية » يعتل بها لكل ما في باب

---

(١) الايضاح في علل النحو ، ص ٦٥-٦٦ .
(٢) الايضاح في علل النحو ، ص ٦٤ .

«ان» بعد هذا ، مثل ان يقال : « فمن أي جهة شابهت هذه الحروف الافعال ؟ وبأي الافعال شبهتموها ؟ أبالماضية ، ام المستقبلة ، ام الحادثة في الحال ، ام المتراخية ، ام المنقضية بلا مهلة ؟ وحين شبهتموها بالافعال ، لأي شيء عدلتم بها الى ما قدم مفعوله على فاعله نحو : ضرب زيدا عمرو ؟ وهلا شبهتموها بما قدم فاعله على مفعوله لانه هو الاصل ، وذاك فرع ثان ؟ فأي علة دعتكم الى الحاقها بالفروع دون الاصول ، وأي قياس اطرد لكم في ذلـــك ؟ وحين شبهتموها بما قدم مفعوله على فاعله ، هلا أجزتم تقديم فاعليها على مفعوليها كما أجزتم ذلك في المشبه به في قولكم : ضرب أخاك محمد ، وضرب محمد أخاك ؟ وهلا حين امتنعت من ذلك لعلة لزمتموه ولم ترجعوا عنه فتجيزوه في بعض المواضع في قولكم : ان خلفك زيدا ، وان امامك بكرا ، وما اشبه ذلك ؟ وهلا حين مثلتم عملها بعمل الفعل المتعدي الى مفعول واحد نحو : ضرب زيدا عمرو ، امتنعتم من اجازة وقوع الجمل في موضع فاعلها في قولكم : ان زيدا ابوه قائم ، وان زيدا ماله كثير ، والفاعل لا يكون جملة ؟ ولم اجزتم وقوع الفعل موقع فاعلها في قولكم : ان زيدا يركب ، وان عبدالله ركب ، أرأيتم فعلا وقع موقع الفاعل بدلا منه ، نائبا عنه ؟ ما أرى كلامكم الا ينقض بعضه بعضا .

« وكل شيء اعتل بـه المسؤول جوابا عن هذه المسائل ، فهو داخل في الجدل والنظر » (١) .

فأنت ترى معنا بعد مطالعة كل هذه « المرافعات » الفرق الكبير ، والبون الشاسع ، بين نظرية العامل وبـين نظرية العلة بمفهوميهما السابقين ، وهذا ما قصدنا اليه حين قلنا بتعقيد « علل النحو » في العصور المتأخرة ، وبعدها عن العلة في نشأتها الاولى ، وبالتالي عن نظرية « العوامل والمعمولات » التي هي صنو لها .

وعلى كل حال فليس قصدنا مما قدمنا التأريخ للعلة النحوية

---

(١) نفسه ، ص ٦٥ .

او لنظرية العوامل ، وانما القصد كل القصد ان نعرض عرضا سريعا ما أصاب الدرس النحويّ العربي من تطور على يد اساتذة سيبويه . فالحق ان هؤلاء الرواد الاجلاء قد جعلوا من النحو علما بعد ان كان الى ايامهم مجرد انظار في اللغة وملاحظات حول ظواهرها المختلفة . ولا غرو ، فقد اصبح الواحد منهم لا يكتفي بعرض الظاهرة اللغوية عرضا سريعا موجزا ، وانما اخذ يبسطها ويمدها ويفرعها ويتعقب جزئياتها ودقائقها بالشرح والتفصيل . فالخليل يقول مثلا عن الحروف المشبهة بالفعل انها « عملت عملين : الرفع والنصب ، كما عملت كان الرفع والنصب حين قلت (كان أخاك زيد) . الا أنه ليس لك ان تقول (كأن اخوك عبدالله) ، تريد (كأن عبدالله اخوك) ، لأنها لا تصرف تصرف الافعال ، ولا يضمر فيها المرفوع كما يضمر في كان . فمن ثم فرقوا بينهما كما فرقوا بين (ليس) و (ما) ، فلم يجروها مجراها ، ولكن قيل هي بمنزلة الافعال فيما بعدها ، وليست بأفعال » (١) .

واذا نحن انعمنا النظر في قوله هذا ، تبين لنا كيف انه لم يكتف بأن يعرض لطائفة من الكلمات تعمل عملا معينا في الاسماء التي تليها على اعتبار انها ظاهرة لغوية محددة ، بل ذهب الى ابعد من ذلك فقارنها بطائفة اخرى من الكلمات (كان واخواتها) لها مثل عمل الاولى في الاسماء التي بعدها ، رفعا ونصبا ، ليظهر لطلابه لم جاز اعتبار (كان) فعلا، بينما لم يجز اعتبار (كأن) كذلك ، معتمدا الامور التالية :

١ ــ جواز تقديم المنصوب على المرفوع مع (كان) ، كجواز تقديمه عليه مع الفعل ، أي تقديم المفعول على الفاعل في بعض الاحيان .

٢ ــ استحالة تقديم المرفوع على المنصوب مع (كأن) كما هي

(١) الكتاب ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

الحال مع الفعل ، اي ان يتقدم الفاعل المفعول في الاحوال الطبيعية .

٣ ـ جواز اضمار المرفوع مع (كان) ، كجواز اضماره مع الفعل ، واستحالة ذلك مع (كأن) وجوازه في منصوبها .

ولا تكفي جميع هذه المفارقات الخليل مؤونة اقناع الطلاب ، فهو يعمد الى برهان آخر : اختلاف (ليس) و (ما) في التركيب الكلامي : جواز اضمار مرفوع (ليس) واستحالة اضماره مع (ما) ، بالرغم من اتفاقهما في العمل : رفع الاسم ونصب الخبر ، وفي الدلالة على النفي .

ويسأل سيبويه استاذه الخليل تفسير ظاهرة جواب الشرط في قوله تعالى (الآية ٣٦ من سوزة الروم) « وان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم اذا هم يقنطون » فيحللها له من وجوه (١) :

١ ـ ان الكلام بعد (اذا) ـ المقصود الجملة الاسمية ـ معلق بالكلام الاول ـ المقصود الشرط وفعله ـ وانه بمثابة فعل واحد ـ التقدير : قنطوا ـ كما ان الجواب بالفاء في مثل قولك « ان تأتني فأنا صاحبك » في موضع الفعل ـ التقدير : صحبتك ـ

٢ ـ ان الذي يجعل (اذا) ـ المقصود طبعا (اذا) الفجائية التي تسبق الجملة الاسمية ـ بمنزلة (الفاء) كونها مثلها لا يبتدأ بها الكلام ، وهذا معناه بالتالي امكان حلولها محلها في ربط جواب الشرط .

٣ ـ يمثل لتقدير الجملة الاسمية في موضع الفعل (هم قانطون = قنطوا) بآية اخرى من الذكر الحكيم هي « سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون » (من الآية ١٩٣ من سورة الاعراف) . فتقدير « انتم صامتون » هو « صمتم » .

ويسأله عن السبب في كسر همزة (ان) في قوله تعالى من

(١) الكتاب ، ج ٣ ، ص ٦٣ ـ ٦٤ .

الآية ١٠٩ من سورة الانعام «وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون»، ولماذا لم تفتح (١) على قياس قولك « ما يدريك انه لا يفعل » (٢) ، فيجيب الخليل بأنذلك لا يحسن في هذا الموضع ، والسبب في ذلك انه انما قال « وما يشعركم » ، ثم أكد حقيقة عدم ايمانهم بأن ابتدأ كلاما جديدا ، فوجب على ذلك كسر همزة (ان) . ثم ان الخليل لا يكتفي بالادلاء برأيه هذا ، بل يشفعه بقول يدل على مدى غوصه على المعنى ، وحرصه على جعل القاعدة النحوية في خدمة هذا المعنى . فقد قال بأنه « لو قال : وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون ـ بفتح همزة (ان) ـ كان ذلك عذرا لهم » . وقد قصد بذلك ان فتح الهمزة يغير المعنى ويجعله « وهل بامكانكم الجزم بعدم ايمانهم ؟ » . وحين يعترض سيبويه بأن اهل المدينة يقرأون بفتح همزة (ان) ، لا يسقط في يد الخليل ، بل يجيب بأن ذلك يكون بمعنى (لعل) ، كما تقول العرب « ائت السوق انك تشتري لنا شيئا » ، أي لعلك تشتري . وعليه يكون تقدير الآية الكريمة « وما يشعركم لعلها اذا جاءت لا يؤمنون » .

ويتضح لك من هذا النقاش الذكي ، كيف كان الخليل يتتبع معنى الكلام لوضع القاعدة النحوية في خدمته ، راسما بذلك معالم الطريق الى جعل النحو علما واضح النهج ، له مقوماته ومعطياته ونتائجه ، كما يتضح كذلك سعة اطلاع الرجل ووقوفه على الفوارق اللهجية بكل دقائقها وخفاياها .

---

(١) القراءة المشهورة بفتح همزة (ان) .
(٢) الكتاب ، ج ٣ ، ص ١٢٣ .

خاتمة

وبعد ، فلم اخترنا ان نقف ببحثنا عند المرحلة التي اطلقنا عليها « مرحلة اساتذة سيبويه » ؟ الجواب على ذلك ان القصد من وراء البحث هو في الدرجة الاولى بيان التطور الذي لحق الدرس النحوي العربي ، خلال ما يناهز القرن من الزمن ، فأخرجه من الطور الجنيني الذي كان عليه في نشأته الاولى ، الى طور الفتاء والنماء على يد اولئك الاساتذة الكبار ، ليبلغ بعد قمة النضج العلمي على يد سيبويه الذي لامراء في انه رأس المدرسة البصرية في النحو ، والذي سيكون هو ومدرسته محور الدراسة في الكتاب الثاني من سلسلة « نظرات في تاريخ النحو العربي » .

واننا لنرجو ان نكون قد وفقنا الى غايتنا في اعطاء القراء وطلاب العربية صورة صحيحة عن نشأة الدرس النحوي ، والدوافع اليه ، وما رافقه من جهود مخلصة ، ادت الى جعله علما حقيقيا يرمي الى خدمة اللغة ، والوقوف على اسرار العربية ، باعتبارها

مؤسسة انسانية غايتها تسهيل الاتصال بين ابنائها ، لا ميدانا للمبارزات المنطقية ، والجدالات اللفظية ، والمناظرات الكلامية ، كما اصبح شأنها فيما بعد .

وانا لنأمل كذلك ان نكون قد حققنا ما نصبو اليه من تخليص تاريخ النحو العربي في نشأته الاولى مما علق بـه مـن افتراءات واساطير ، وما تراكم عليه مع الزمن من افتعالات في الاسباب والدوافع الى قيام الدرس النحوي ، وبيان انه اتى على الامة العربية حين من الدهر احست فيه ـ شأنها شأن سائر امم الارض ـ بالحاجة الى ضبط لغتها بحيث يتيسر لابنائها وغير ابنائها مجانبة الزلل وهم يمارسونها كتابة او خطابة ، لا لغة تواصل وتخاطب يوميين كما قد يتوهم من يقرأ تاريخ النحو بعجره وبجره ، فقام فيها رجال مخلصون ، ومعلمون بررة واعون ، ينظرون فيما ترك السلف من أثر ويسجلون ملاحظاتهم وآراءهم في ظاهرات اللغة واساليبها في التعبير وطرقها في اداء المعاني ، وكان ثمرة ذلك علما خيرا شهد في عصوره التالية صورا من التزمت والتعنت ، خرجت به عن دائرة العلم الحقيقي ، وجعلت طلابه يضيقون به وينوءون بحمله .

واذ كان هدفنا النهائي من هذه الدراسة (نظرات في تاريخ النحو العربي) العمل على العودة بذلك العلم الى منابعه الصافية ، وارجاعه الى طبيعته الاولى ، وهي ان يكون في خدمة اللغة واكتناه اسرارها وخفاياها لتيسير اتقانها ، فانه لا بد قبل كل شيء مـن الانكباب عليـه درسا في صورة المعقدة التـي خلفتهـا العصور المتعاقبة ، وابراز الاطلالات المشرقة التي كانت تتم بين الحين والحين بقصد تخليصه من شوائب التعقيد ورده الى بساطته الاولى لتيسير

امره على طلابه ، اذ كان اصحاب تلك الاطلالات يشعرون بضرورة ذلك ، كما نشعر اليوم تماما .

وهذا ما نرجو مخلصين ، وبكل تواضع ، ان نفعله عبـــر السلسلة التي سيكون هذا الكتاب حلقتها الاولى ،رائدنا فـــي ذلك خدمة اللغة التي نحبها ونعتز بها ، لا باعتبارها من المقدسات التي لا يجوز مسها ، وانما لانها جزء من كيان امتنا ، ووسيلتها للتعبير عن فكرها الانساني .

ثبت المراجع

١ ــ الدكتور ابراهيم انيس ، من اسرار العربية ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٢ .
ــ اللغة بين القومية والعالمية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ .
٢ ــ ابن الاثير ، المثل السائر ، المطبعة البهية بمصر ، ١٣١٢هـ .
٣ ــ ابن الانباري ، نزهة الالباء في طبقات الادباء ، مصر ١٢٩٤ هـ .
٤ ــ ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
٥ ــ ابن جني ، الخصائص ، دار الهدى ــ لبنان (طبعة ثانية) .
٦ ــ ابن خلدون ، المقدمة ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
٧ ــ ابن رشيق ، العمدة ، محمد محيي الدين عبد الحميد ــ القاهرة ١٩٦٣ .
٨ ــ ابن السكيت ، اصلاح المنطق ، دار المعارف بمصر ١٩٥٦ .
٩ ــ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، دار الثقافة ــ بيروت ١٩٦٤ .
١٠ ــ ابن النديم ، الفهرست ، فلوغل ــ ليبزج ١٨٧١ .
١١ ــ ابن ابي داود السجستاني ، كتاب المصاحف ، ليدن ١٩٣٧ .
١٢ ــ ابو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ، القاهرة ١٩٥٤ .
١٣ ــ احمد امين ، ضحى الاسلام ، دار الكتاب العربي ــ لبنان ١٩٦٩ .
١٤ ــ احمد بن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة ، مؤسسة بدران ــ بيروت ١٩٦٣ .
١٥ ــ الدكتور انيس فريحة ، نظريات في اللغة ، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٣ .
١٦ ــ الدكتور تمام حسان ، اللغة بين المعيارية والوصفية ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨ .
١٧ ــ الجاحظ ، البيان والتبيين ، عبد السلام هارون ١٩٤٨ .
١٨ ــ جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال ١٩٥٧ .
١٩ ــ الدكتور حسن عون ، تطور الدرس النحوي ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٠ .
٢٠ ــ الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، دار المعارف بمصر ١٩٧٣ .
٢١ ــ الزجاجي ، الايضاح في علل النحو ، دار النفائس ــ بيروت ١٩٧٣ .

٢٢ ـ الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ مصر ١٩٥٧ .
٢٣ ـ سيبويه ، الكتاب ، عبد السلام هارون ـ مصر ١٩٦٦ .
٢٤ ـ سعيد الافغاني ، في اصول النحو ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤ .
٢٥ ـ السيرافي ، اخبار النحويين البصريين ، كرنكو ، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٣٦ .
٢٦ ـ السيوطي ، المزهر في علوم اللغة ، عيسى البابي الحلبي بمصر .
ـ ، بغية الوعاة ، عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٦٥ .
٢٧ ـ الدكتور شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .
٢٨ ـ طرفة بن العبد ، الديوان ، طبعة دار صادر بيروت ١٩٦١ .
٢٩ ـ عباس حسن ، اللغة والنحو بين القديم والحديث ، دار المعارف بمصر ١٩٧١ .
ـ النحو الوافي ، دار المعارف بمصر ١٩٧١ .
٣٠ ـ الدكتور عفيف دمشقية ، الانفعالية والابلاغية في بعض اقاصيص ميخائيل نعيمه ، دار الفارابي ـ لبنان ١٩٧٥ .
٣١ ـ الدكتور علي ابو المكارم ـ الظواهر اللغوية في التراث النحوي ، القاهرة ١٩٦٨ .
٣٢ ـ الدكتور علي عبد الواحد وافي ، فقه اللغة ، دار نهضة مصر .
ـ علم اللغة ، دار نهضة مصر ١٩٦٧ .
٣٣ ـ القاضي الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، مطبعة العرفان بصيدا ـ لبنان .
٣٤ ـ القفطي ، انباه الرواه ، دار الكتب المصرية ١٩٥٠ .
٣٥ ـ القلقشندي ، صبح الاعشى ، المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩١٣ .
٣٦ ـ كارل بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، دار المعارف بمصر .
٣٧ ـ الدكتور مازن المبارك ، النحو العربي ، العلة النحوية : نشأتها وتطورها ، دار الفكر ـ لبنان ، ١٩٧١ .
٣٨ ـ محمد المبارك ، فقه اللغة وخصائص العربية ، دار الفكر الحديث ـ لبنان ١٩٦٤ .
٣٩ ـ مصطفى صادق الرافعي ، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٤٥ .
٤٠ ـ ياقوت ، معجم الادباء ، عيسى البابي الحلبي بمصر .
٤١ ـ اليعقوبي ، التاريخ ، طبعة صادر بيروت ١٩٦٠ .

المحتويات

صفحة